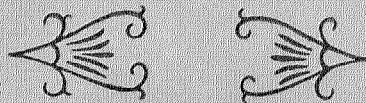


مجمع عبد المنعم خفاجي

# صُور مِنَ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ وَتَارِيخِ الْإِسْلَام

رابطة الأرباب الحديث



AL-NAJAH BOOKSHOP

Al-Najaf al-Ashraf - Irak - C.A. Kashmiri

مكتبة النجاة

النجاة

مكتبة النجاة - العراق - كشمير



0197930

Bibliotheca Alexandrina

اهداءات ٢٩٩٩

مكتبة

١. د. عبد الحميد بدوي

القاضي بمحكمة العدل الدولية

محمد عبد المنعم خفاجي

# صُور مِنَ الْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ وَتَارِيخِ الْإِسْلَامِ

رابطه الإرب بالحديث

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م

حقوق الطبع محفوظة

دار العهد الجديد للطباعة  
كامل مصباح - تليفون : ٥٠٨٥٢



## تقديم

في هذا الكتاب « صور من الفكر العربي وتاريخ الإسلام » قدمت للقارئ ألوانا عديدة من أروع المواقف وأخلفها في تاريخ الإسلام والمسلمين ، ومن مظاهر التحول في تاريخ الفكر العربي ، وعرضت بالدراسة والترجمة والتحليل لبعض نوابع الفكر الإسلامي العربي ، وأثرهم في تطور النهضة العقلية الأدبية في شتى بلاد العروبة ، وتحدثت عن بعض مشكلات الأدب والنقد والشعر ، وعن مواطن الأدب في العصور القديمة ، وعن أشياء أخرى ، أعتقد أنها مما تتصل بتفكيرنا الحاضر من قريب .

ومن حظي أن أقدم هذه الدراسات إلى القارئ ، ليقرأها ، وليحكم لها أو عليها ، وأشهد أني قد أجهدت نفسي فيها : في تقريب الفكرة ، وتوضيح الهدف ، وتبسيط الأسلوب ، إجهادا شديدا .

ومن الله ، ومن رضا القراء ، وحسن ظنهم بي ، أستمد العون والتوفيق ؟

المؤلف



# التكوين السياسى للدولة الإسلامية الأولى

— ٦ —

( ١ )

وأخيراً انتصر الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة الكفاح المقدس من أجل الرسالة الإلهية التي حملها وجاهد من أجلها ، انتصر في نضاله الخالد لأعداء السلام والحرية ، حطم الحصار الاقتصادي الذي فرضه مشركو مكة عليه وعلى أصحابه وقومه ، وحطم حرب الدعاية التي قصدت من وراءها قریش إلى صرف الناس عنه وعن دعوته ، وانتصر على دعاة الحرب والخصام ، وعلى أعوان الشرك والوثنية .

وأفلت من السجن الكبير الذي أحاط به المشركون في مكة ، وهاجر من مكة إلى المدينة بعد مصادف من أهوال ، ولاقى من شدائد ، واعترضه من محن وخطوب .

لقد كان يدعو في مكة دعوة السلام والإسلام ، ولكن الآذان التي اعتادت سماع صيحات الحروب والأخذ بالتأثر ، والقلوب التي تمجرت وأصبحت تدين بطقوس الوثنية الجاهلية الخمقاء ، وعصيت عن فهم الدعوات الجديدة الحرة ، والزعماء الذين هالهم أن يتنازلوا عن كبرياتهم وامتيازاتهم وطبقتهم ، كل أولئك وقف للرسالة الجديدة موقف العداء والخصومة .

ومن ثم كانت هجرته صلوات الله عليه انتصارا للسلام ، وللحرية الإنسانية ، ولكرامة الإنسان ، وكانت حدثاً جليلاً في تاريخ الإنسانية أرخت به شعوب الحضارة الإسلامية حياتها منذ الهجرة حتى اليوم ، لقد كانت الهجرة تعنى قيام الجمهورية اشتراكية في المدينة ، يتعاون فيها الجميع على نشر السلام ومبادئ الإسلام ، كانت تعنى أن الفكرة الإسلامية وجدت مجتمعها الجديد الذي تعيش فيه ، وتتلور مبادئها في كيانه ، وتنفذ من نطاقه لتطل على العالم بوجه جديد في عصر جديد ، وحضارة اشتراكية حرة تعاونية جديدة .

وفي المدينة وضع الرسول نواة الحياة الجامعية الحرة ، حين بدأ فبنى المسجد النبوى واتخذ مكانا للعبادة ولنشر تعاليم الإسلام .

وكانت خطبه الأولى في المدينة تدعو إلى التعاون والإيثار والبر والمعروف والإحسان والمحبة والطاعة ، يقول صلوات الله عليه في خطبة له من أوائل خطبه بالمدينة :

« إن الحمد لله ، أحمدوه وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى . قد أفلح من زينه الله في قلبه ، وأدخله في الإسلام بعد الكفر ؛ واختاره على ماسواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم ، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، قد سماه الله خيرته من الأعمال ، ومصطفاه من العباد ، الصالح الحديث ، ومن كل ما أوتي الناس من الحلال والحرام ، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته ، وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينسكت عهده والسلام عليكم ورحمة الله .

ومن دعامة التكوين السياسى الأول للجمهورية الإسلامية الأولى أن بدأ رسول الله فآخى بين الأنصار والمهاجرين ، ثم طمأن الأقليات في الجمهورية الإسلامية ومن بين الأقليات اليهود ، وكان الهدف من ذلك تحقيق وحدة يثرب السياسية .

كان وصول الرسول صلوات الله إلى المدينة في الثاني عشر من ربيع الأول ، الثامن والعشرين من يونيو ٦٣٢ ميلادية ، واتخذ الأذان شعارا للدولة الجديدة أو بمثابة نشيد إسلامى موحد ، يؤذن به للصلوات ، وتفتح به الجماعات ، ويدعى به للأمور العامة الجامعة : « الله أكبر الله أكبر الله أكبر

الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، أشهد أن محمدا رسول الله ، حتى على الصلاة ، حتى على الصلاة .  
حتى على الفلاح ، حتى على الفلاح ؛ الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

كانت الحكومة في المدينة جمهورية لأن الحكم فيها كان لجمهور المسلمين ؛ وكان الرسول لا يتولى الصدارة والإمامة في هذه الحكومة إلا لأنه صاحب الرسالة ، ولم يتخذ الرسول لنفسه ميراثا من الحكم ، ولم يجعل لأسرته شيئا من الجاه والنفوذ ، وكان الحكم الشورى أساس حكمه ، ولا يمكن أن نقول إن الحكم كان في الدولة الجديدة قائما لمصلحة فرد أو طبقة ، بل إنه كان لعامة جمهور المسلمين ، كان رئيس الدولة هو صاحب الرسالة ، اختاره الله ورضى به أصحابه ليتولى الإمامة والزعامة والصدارة الروحية والسياسية في الجمهورية الإسلامية الجديدة ، ولم يعين رسول الله طبقة تخلفه في الحكم ، ولا دعا لحكم آل بيته من بعده ، فهي جمهورية : الحكم فيها للشعب ومن أجل الشعب .

وكانت هذه الجمهورية الأولى هي النواة الأولى للتكوين السياسي للجمهورية الإسلامية الجديدة ، وكان ميلادها بدء تاريخ جديد في حياة الإنسانية والحضارة ، ومن ثم استحق يوم ميلادها أن يجعل عيدا عاما للمسلمين ، وبدء ألتاريخهم العام .

## ( ٢ )

ولم يكن قيام هذه الجمهورية يعني في شيء أكثر من أن الجزيرة العربية - التي صارت مهبط الوحي السماوي - قد انقسمت على نفسها ، فلو ثنية دولة في مكة وللإسلام دولة في المدينة ، ومن أجل ذلك لم يكن التكوين السياسي للدولة الإسلامية قد تم لأن الخطر كان يهدد الإسلام في كل لحظة ، ومصدره مكة ، ولأن الاستقرار السياسي لم يكن قد أصبح حقيقة ثابتة في حياة المسلمين بعد .

ومن ثم استمر النضال العسكرى بين الوثنية والإسلام أعواماً أخرى ،  
فى بدر ، ثم فى أحد ، وسواهما .

### ( ٣ )

ولم ينته هذا النضال إلا فى مكة نفسها . مكة التى حاربت الإسلام بكل  
ما استطاعت من قوة . وإن كانت هى منبعه ومهبطه ، مكة التى بلغت عداوة  
قريش فيها لمحمد ورسالته نهايتها القصوى ، حتى أقدمت على نقض صلح الحديبية  
بمساعدها لحلفائها بنى بكر على الاعتداء على خلفاء الرسول من بنى خزاعة حتى  
فى الكعبة نفسها ، ونجم عن ذلك أن توجه وفد من بنى خزاعة إلى المدينة  
يستنصر الرسول ، فبادر محمد يطلب من قريش إحدى ثلاث :

١ — دفع الفدية لمن قتل من بنى خزاعة .

٢ — أو التخلّى عن حلفائهم بنى بكر .

٣ — أو إعلان بطلان عهد الحديبية الذى كان ينص على أن من أحب  
من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه ، ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه .  
وجاء رد قريش بنقض صلح الحديبية ، وذهب أبوسفیان وقد شعر بالخطر  
يتهدد مكة وتجارها إلى المدينة يحاول تثبيت عهد الحديبية وأن يزداد فى مدته ،  
ولكن رسول الله صلوات الله عليه فطن إلى مكره ، ورفض تجديد العهد .

ومن ثم كان لا مفر من أن يستعد المسلمون للقيام بحملة عسكرية هدفها  
مكة والقضاء على مراكز الوثنية ونشاطها فيها ، وتوحيد الجزيرة العربية  
سياسياً وروحياً لتبدأ من جديد حياتها الصالحة الطيبة ، ولذلك اتصل الرسول  
بالمسلمين فى أنحاء الجزيرة العربية ليكونوا على أهبة الاستعداد لإجابة ندائه .  
ولم يكن المسلمون يخفى عليهم حرب قريش للإسلام قبل الهجرة  
وبعدها ، وهجوهم على المدينة مرات لإبادة المسلمين فيها .

وبدأت محاولات الخيانة فى المدينة ، فكتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً



أعطاه امرأة من مكة مولاة لبعض بنى عبد المطلب ينبئهم فيه بما أعد محمد لهم من استعداد عسكري ، ولكن الرقابة الدقيقة التي أقامها المسلمون على مسالك المدينة وصدق الوحي المنزل من السماء ، وصدق فراسة أصحاب رسول الله ، أدى كل ذلك إلى مصادرة الرسالة ومنعها أن تقع في أيدي الأعداء . ومضى رسول الله بجيش ضخم عدده عشرة آلاف من المؤمنين ، إلى مكة ، وبهذا تحققت كلمة الله التي نطق بها موسى منذ ألفي عام : « جاء ومعه عشرة آلاف من الأبرار »<sup>(١)</sup>

لم يكن الرسول يريد القتال وإراقة الدماء ، بل نشر الخير والسلام ، ونزل الجيش معه بمر الظهران على مسيرة يوم من مكة ، وصدرت الأوامر بأن توقد النيران في المعسكر جميعه ، ليدب الرعب في قلوب قريش فيستسلموا ويسالموا ، وينتهي القتال .

نزل الرسول مر الظهران ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، لا يدرون ما الرسول فاعل ، وفي إحدى الليالي خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبرا ، أو يسمعون بخبر ، ولقيهم في الطريق العباس بن عبد المطلب وهم يتحادثون وأبو سفيان يقول : والله مارأيت كالمليحة نيرانا قط ولا عسكرا قط ، ويرد عليه بديل بن ورقاء : هذه والله خزاعة .

- أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .
- العباس يعرف صوت أبي سفيان فيناديه : يا أبا حنظلة .
- أبو سفيان يعرف صوت العباس فيناديه : يا أبا الفضل .
- العباس : نعم .
- أبو سفيان : مالك فداك أبي وأمي .

— العباس : ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله في الناس واصباح  
قريش والله .

— أبو سفيان : فما الحيلة فذاك أبي وأمي .

— العباس : والله لئن ظنر بك ليضر بن عنقك فاركب في عجز هذه البغلة  
حتى آتي بك رسول الله ، فأستأمنه لك .  
— أبو سفيان يركب خلف العباس ويرجع صاحبا .

ومر العباس به على معسكر المسلمين . فجعل كلا من بنار من نيران  
المسلمين ، قالوا من هذا ؟ فإذا رأوا فرس رسول الله والعباس عليها قالوا : نعم  
رسول الله على فرسه ، حتى مر بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ، وقام  
إلى العباس ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال : أبو سفيان عدو الله؟  
الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول  
الله ، وتوجه العباس بأبي سفيان نحو رسول الله ودخل عمر على الرسول ،  
فقال : يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد ،  
فدعني فلا أضرب عنقه .

— العباس مبادرا : يا رسول إني قد أجزته ، ثم جلس العباس إلى  
رسول الله يكلمه ، وعمر يكثر من الكلام فيما قال ، فبادره العباس : مهلا  
يا عمر فوالله لو كان رجلا من بني عدي ما قلت هذا ولستك قد عرفت أنه  
من بني عبد مناف .

— عمر : مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى  
من إسلام الخطاب لو أسلم وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب  
إلى رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم .

— الرسول صلى الله عليه وسلم : اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا  
أصبحت فأتني به .

— العباس يذهب به إلى رحله فيبيت عنده فلما أصبح غدا به إلى رسول

الله ، فلما رآه الرسول قال صلوات الله عليه وسلم : ويحك يا أبا سفيان ألم  
يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ما أحملك وأكرمك  
وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني  
شيئاً بعد .

— الرسول صلوات الله عليه : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم  
أني رسول الله .

— أبو سفيان : بأبي أنت وأمي ما أحملك وأكرمك وأوصلك ، أما هذه  
والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً .

— العباس : ويحك اسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله  
قبل أن تضرب عنقك .

— أبو سفيان : يشهد ويسلم .

— العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً

— الرسول صلوات الله عليه : نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ،  
ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .

— أبو سفيان يذهب لينصرف فيقول رسول الله للعباس :

— يا عباس احبسه بمضيق الوادي حتى تمر به جنود الله فيراها .

وأخذت تمر القبائل على راياتها فكلما مرت قبيلة قال : أبو سفيان :  
يا عباس من هذه ؟ فيقول : سليم ، فيقول أبو سفيان : مالي وسليم ، ثم تمر  
القبيلة فيقول : يا عباس : من هؤلاء ؟ فيقول : مزينة ، فيقول : مالي ولمزينة ،  
وظل كذلك حتى مر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء (١)  
فقال أبو سفيان : يا عباس من هؤلاء ، قال : قلت هذا رسول الله في

---

(١) سميت بذلك لسكثرة الحديد وظهوره فيها .

المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل  
لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما .

— العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة .

— أبو سفيان : فنعم إذن .

— العباس : النجاء يا أبا سفيان إلى قومك .

— أبو سفيان : يذهب إلى قومه ، حتى إذ جاءهم صرخ بأعلى صوته :  
يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان  
فهو آمن .

— هند بنت عتبة : تنهض وتأخذ بشارب أبي سفيان وتقول : قبحت  
من طليعة قوم .

— أبو سفيان : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا  
قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

— القوم يردون عليه : قاتلك الله وما تغني عنا دارك ؟ .

— أبو سفيان : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ،  
فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

إن هذا لأكبر رد على من يذهبون إلى أن الإسلام دين السيف فما كان  
بين شروط الأمان جبر المشركين على الدخول في الإسلام .

تقدم المسلمون إلى المدينة ، وأمر الرسول أن يفرق الجيش إلى أربع  
فرق ، وأمرها جميعا ألا تقاتل ، وألا تسفك دما ، وكان سعد بن عباد على  
فرقة منها ، فلما مر سعد على أبي سفيان صاح : « اليوم يوم الملحمة ، اليوم  
تستحل الحرمة » فلم يؤيده رسول الله ، وأخذ الراية منه ، ودفعها إلى ابنه  
حقنا للدماء .

ودخل خالد بن الوليد مكة من حى خصوم خزاعة ، وكان بينهم عكرمة

ابن أبي جهل : وعلى الرغم من إعلان العفو العام ، لم يدعوا خالدا يدخل ، وأمطروا جيشه نبالا ، فاضطر خالد إلى تفريقهم ، وقتل من رجاله رجلان وفقدت قريش ثلاثة عشر رجلا ، وصعد محمد صلوات الله مرتفعاً لينزل منه إلى مكة ، فأبصر سيوف خالد تعمل في رقاب أهل مكة ، فصاح مغضباً ، واستدعى خالدا يذكره بأمره ألا يكون فيها قتال مكة ، واستسلم المشركون .

ونزل رسول الله مكة ، واطمأن الناس ، ثم جاء البيت ، فطاف به سبعا على راحلته ، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له ، فدخلها ، ثم وقف على باب الكعبة ، وقد اجتمع الناس له في المسجد ، وقام الرسول على باب الكعبة فقال :

« لا إله إلا الله ، وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أودم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانه البيت ، وسقاية الحجاج ، يامعشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية : يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم . » ثم قال : يامعشر قريش : ماترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء . »

وانطلق النبي يظهر الكعبة المسكرمة من أصنام الوثنية ، وراح يطعنها بعود في يده ، ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل » « إن الباطل كان زهوقا » . ومن هذه اللحظة الحاسمة انتهت عبادة الأصنام من جزيرة العرب ، وما وجدت صورة أو صنم طريقها إلى البيت الحرام ، وأصبحت عبادة التوحيد والإسلام هي السائدة في جزيرة العرب .

وكان من الذين هاجموا خالدا عكرمة ، فلما استتب الأمر لمحمد هرب عكرمة ، وجاءت زوجته إلى الرسول تطلب الأمان له فأمنه الرسول فلحقته

به باليمن فجاءت به ، وخرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن ، فقال عمير بن وهب : يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ليقتل نفسه في البحر ، فأمنه صلى الله عليه وسلم ، قال : هو آمن ، قال : يا رسول الله فأعطني آية يعرف بها أمانك فذاك أبي وأمي ، فأعطاه رسول الله عمامته التي دخل فيها مكة ، فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب في البحر ، فقال : يا صفوان فذاك أبي وأمي ، أفضل الناس وأبر الناس ، وأحلم الناس وخير الناس ، ابن عمك ، عزه عزك وشرفه شرفك ، وملسكه ملسكك ، قال : إني أخاف على نفسي ، قال : هو أحلم من ذاك وأكرم ، فرجع معه ، حتى وقف به على رسول الله ، فقال صفوان إن هذا يزعم أنك قد أمنتني ، قال صلوات الله عليه : صدق ، قال : فاجلعي فيه بالخيار شهرين ، قال : أنت بالخيار فيه أربعة أشهر .

وشملت رحمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحشياً الذي قتل حمزة ، وهذا التي لاكت كبده ، فعفا عنهما ، وصفح عن صفع ابنته وهي في طريقها من مكة إلى المدينة صفعة كانت السبب في القضاء عليها ، وليس في تاريخ الفتوحات حلم كهذا الحلم ، ولا تسامح يشبه هذا التسامح ، ولا يوجد في حياة إنسان آخر مثل هذا الغفران النبيل ، والرحمة الرفيعة ، فما سنحت لرسول الله فرصة للتسامح والعفو إلا سآح وعفا ، مع قدرته على عقوبة المذنبين .

( ٤ )

فتحت مكة ، واستولى المسلمون عليها ، وكان لخلق القائدا الأعظم وتسامحه ورحمته أثرها في دخول الناس في دين الله أفواجا ، ولانت قلوب ما كانت لتلين ، وتأثر أبو سفيان وزعماء الشرك والوثنية بمبادئ الإسلام القويمة السامية ، وقضى نبل المسلمين وكرم أخلاقهم على جميع أسلحة قريش وحطم معارضتها ، خضعت وأطاعت وآمنت بالرسالة وصاحبها وقبلت مكة سلطان محمد بفرح وسرور عظيمين ، وقابل محمد ذلك بشكر الله عز وجل على نعمته

— ١٦ —

عليه وعلى الإسلام والمسلمين : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا » .

( ٥ )

وبفتح مكة سقط آخر معقل للوثنية في جزيرة العرب ، وصارت مكة والمدينة تشتركان في التوجيه السياسى والروحى للإسلام والمسلمين ، وتم التكوين السياسى للدولة الإسلامية الجديدة التى قامت على الحق والتوحيد والتعاون بين الناس جميعا ، وعلى محاربة الظلم والطغيان والاستبداد ، وعلى نشر السلام فى الأرض ، وعلى أنبل المثل وأكرم المبادئ .

وصار للإسلام دولة قوية تدافع عنه وتؤمن به ، وتسعى لتطبيقه ونشره بين الناس .



من مواكب التاريخ

( ١ )

اليوم هو الرابع من شهر ربيع الأول - ٢٠ يونيو ٦٢٢ م ، والمكان هو الطريق بين مكة والمدينة على بعد أميال من مكة ، هناك هناك شبهان يسيران بعيدا بعيدا ، على جملين قوين ، ورائدهما في هذه الرحلة الطويلة في طريق الساحل بين مكة والمدينة هو عبد الله بن أريقط .

وخلفهما من بعيد يعدو شاب قوى جلد على جواد أصيل ، وهو يحث الجواد ليلحق بهما .

أما الشبهان فرسول الله محمد بن عبد الله صلوات الله عليه ورفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وأما الشاب الذي يعدو خلفهما بفرسه فسراقة الكنانى المسكى .

كان محمد صلوات الله عليه في هذا اليوم في رحلته الخالدة ، وهجرته الماجدة ، هذه الهجرة التي أعز الله بها الإسلام ، وجعلها فتحا مبينا للمسلمين . كان قد فر بدينه من مكة ومشركها ، وخرج ليشيد للإسلام صرحا متيعا في « المدينة » بين الأنصار والمهاجرين ، وكان رفيقه في هذه الرحلة الميمونة أبا بكر الصديق .. هذه الهجرة التي كانت معجزة للإسلام ونبي الإسلام ، ويوما مجيدا ، حفظ قصته الزمن ، ورددت بطولته الأجيال ، بل لقد وقف التاريخ حيال الهجرة معجبا مشدوها ، يتدبر ليفهم آياتها الكبرى ، ويمعن ليدرك أسرارها العجيبة ، وآثارها العظيمة على الحياة والإنسانية .

وأما سراقة فكان فقي من مكة خرج - حين أعلنت قريش عن جائزة قدرها مائة جمل لمن يقبض على محمد وصاحبه - يبحث عن النبي المهاجر ليرده إلى مكة ، حتى ينال الجائزة الموعودة ، وكان سراقة رجلا متين البنيان ، أخبره أعرابي أنه رأى ثلاثة نفر مروا عليه يعتقد أنهم محمد وصاحبه والرائد الذي يدهما على الطريق ، فلبس سراقة سلاحه ، وامتنطى جواده ، وانطلق في أثرهم يسير بين الصخور والجبال .

وكاد سراقه أن يبلغ الرسول ، حتى لقد سمع قراءته وهو لا يلتفت ، وأبو بكر يكثّر الالتفات ، وما هو إلا أن ساخت يدا فرسه في الأرض ، فنزل من فوقها وأقامها ، ثم ركبها ، حتى كاد أن يصل إلى رسول الله وأبي بكر ، وهتف قائلاً :

يا محمد إن قومك قد جعلوا فيك الدية ، وإنى خرجت أطلبك ، واطلب بطلبك المال والمجد والشهرة . وكبابه فرسه مرة أخرى ، فأقامها ، وضرب القداح يستشير الآلهة ، أيستأنف السير ؟ وأشارت عليه الآلهة : أن لا ، ولكنه ركب جواده ، وانطلق في أثر محمد وصحبه ، حتى أصبحوا منه على مد البصر ، فلما كان جواده ، ولكنه كبابه كبوة شديدة ، وألقى به بعيداً ، حتى كان سراقه يقول فيما يعد وهو يقص قصته : لقد شعرت حينئذ أنه قد قدر أن تفوز قضية محمد ، فأقلعت عن فكرة اغتياله ، وهتفت : أنا سراقه ، انظروني أكلمكم فوالله لا أريكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه ، والتفت محمد وأبو بكر إليه ، فاقتربا منهما ، وقص عليهما قصص الناس وما يريدونه بهما ، وعرض عليهما سراقه الزاد والمتاع فلم يأخذا منه شيئاً ، وقالوا له اكتم عن الناس خبرنا . وطلب إلى محمد أن يكتب له كتاباً يكون آية بينه وبينه ، فأمر أبا بكر أن يكتب له الكتاب .

ويلتفت الرسول صلوات الله عليه إلى سراقه قائلاً : كيف بك يا سراقه إذا لبست سوارى كسرى ومنطقته وتاجه ، ثم يسكت ، ويسكت سراقه متعجباً مشدوهاً متحيراً . .

ويمضي الركب لطيته ، وبسير محمد وصاحبه ورفيقهما متجهين صوب المدينة ، ويعود سراقه إلى مكة محتفياً عن الأنظار مبهوراً بما رأى وما سمع ؛ ويصل رسول الله إلى المدينة في الثاني عشر من ربيع الأول - ٢٨ يونيو ٦٢٢ هـ ، ويستقبل فيها استقبال الأبطال .

( ٢ )

وثر الأيام ويموت رسول الله ، ويلى أمور المسلمين بعده أبو بكر ؛ ثم عمر ، وتمتد الفتوحات ، ويمضى جيش المسلمين فى فتح امبراطورية فارس ، وتهزم فارس فى موقعة القادسية عام ١٤ هـ ، ثم ينحدر جيش المسلمين إلى « المدائن » فأخذها وصلى فيها سعد بن أبى وقاص صلاة الفتح ثمانى ركعات ؛ وغنم المسلمون غنائم لاتحصى ؛ وشاهدوا فرسا محملا بذخائر كسرى : حليته ووشاحه ودرعه المحلاة بالجواهر ، فأخذوه ، ثم شاهدوا فرسين آخرين فأخذوهما وكانا يحملان حقائب ؛ فيها تاج كسرى وثيابه المصنوعة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجواهر ، كما استولى المسلمون كذلك على درع كسرى ومعه درع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع ملك الهند ؛ وما استولوا عليه تمثال على صورة فرس كله من ذهب وسرجه من فضة وصدره محلى بالياقوت والزمرد وعليه فارس كله من فضة ، وتمثال آخر لناقاة من فضة محلاة بالذهب وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر ، وقسم قائد الجيش سعد بن أبى وقاص الغنائم بين المسلمين .

وحمل تاج كسرى وجواهره إلى عمر ، ولما شاهدها عمر قال إن قوما أدوا هذا لذو أمانة ، فقال على : لقد عففت فعففت الرعية .  
ومن الغنائم بساط لسكسرى طوله ستون ذراعا وعرضه مثلها فيه طرق وأنهار وأشجار ورياض ، فبعث به سعد إلى عمر .

( ٣ )

ولم يلبث عمر أن دعا سراقه بن مالك السكنانى ، فدخل عايه ، فاستدناه منه ؛ وألبسه سوارى كسرى ومنطقته وتاجه ، وقال له عمر : ارفع يدك وقل الله أكبر الحمد لله الذى سلب السوارين كسرى بن هرمن الذى كان يقول أنا رب الناس ، وألبسهما سراقه رجلا أعرابيا من مدج ؛ ورفع عمر صوته ينادى

الناس ؛ ثم أركب سراقه ، وطيف به في المدينة ، والناس من حوله يحتفلون بهزيمة كسرى ، ويصدقون الرسول الأكرم إظهارا لمعجزة الرسول الأعظم ، الذى بشر سراقه بأنه سيلبس سوارى كسرى ، بشره بذلك وهو مهاجر من مكة إلى المدينة ، فار بديته من مكة ومشركيها ، بشره بذلك والمشركون يكادون يفتككون به ، والرسالة معرضة للخطر ؛ بشره بذلك وهو لا يملك من أسباب الدفاع عن نفسه ورسالته شيئا ، ولا يحلم أحد بأن جيوش الإسلام ستفتح العالم كله في أقل من قرن من الزمان .

إنها حقا لمعجزة من معجزات نبي الإسلام ، وسر من أسرار الرسالة حقيقته الأيام ، وما أكثر معجزات محمد رسول الله وآياته الباهرة ، وصدق الله عز وجل حين يقول في كتابه الحكيم : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ...

إن موكب سراقه في المدينة موكب خالد ، شهادته الإنسانية وهى تبسم ابتسامة الجد والفرح ، لسقوط معقل حصين من معقل الهيمنة والوحشية وحكم الاستبداد ، ولسطوع نور الرسالة الجديدة ، رسالة محمد ، رسالة الحرية والإخاء . رسالة العدل والمساواة بين الناس . رسالة التسامح والإنصاف . رسالة الحضارة والمدنية والعلم والعرفان ...

بطل اليرموك

( ١ )

بطل اليرموك خالد بن الوليد من أشهر القواد الخالدين في التاريخ ، ولقد سجل بعبقريته الحربية صفحات ناصعة بيضاء لا يمكن أن تنسى على مرور الأعوام والأجيال .

إن خالدا قد وضعه جهاده في الصف الأول من الأبطال في تاريخ العالم كله ، والعبقريون العسكريون عندما توزن أعمالهم وبطولاتهم بميزان صحيح سوف تنهار عظمتهم إذا ما قيسوا بخالد في بطولته وعظمته .

( ٢ )

وخالد قرشي مخزومي ، وهو ابن الوليد بن المغيرة ، وكان أبوه سيدا من سادات قریش وأشرافها ، وقد أرخت قریش بوفاة إكبار له واحتفاء بذكره .

وكان خالد أحد وجوه قریش وأشرافها ، وكان قائدا محنكا ، شهد مع المشركين أحدا قبل أن يسلم ، وشهد كذلك الحديبية معهم .

وأسلم خالد عام ٨ هـ وكان أخوه الوليد قد أسلم وبعث إليه رسالة يقول له فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد . ، فإنني لم أر أعجب من ترهات رأيك عن الإسلام ، وعقلك عقلك ، ومثل الإسلام لا يحمله أحد ، وقد سألت رسول الله فقال : أين خالد ؟ . فقلت : يأتي الله به ؛ فقال : مثل خالد يحمل الإسلام ولو كان جعل نكايته مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ، ولقد مناه على غيره ، فاستدرك يا أخي ما فاتك منه ، فقد فاتتك مواطن صالحة .. وأسلم فأعز الله به الإسلام والدين .

وشهد مؤتة وفتح مكة ، ووفد في كثير من الوفادات ، واشترك في حروب الردة اشتركا فعلا .



ثم اشترك مع القواد العرب في الفتوحات الإسلامية ، فحضر أروع الأمثال في الحنكة والخبرة والتجربة والسكفاية العسكرية .

### ( ٣ )

اشترك خالد في الفتوحات الإسلامية في العراق في عهد أبي بكر ثم ندبه الخليفة لحروب الشام إبان احتدام المعارك بين الجيوش الإسلامية و جيوش الروم .

وفي عام ١٣ هـ خاض معركة اليرموك ، فكان بطولها العظيم . كان عدد الجيش الإسلامي حول اليرموك نحو ٢٧ ألفا ، وقدم خالد من العراق في تسعة آلاف فصار عددهم ستة وثلاثين ألفا ، وقيل كان عدد جيش المسلمين في اليرموك ٤٠ ألفا ، ومهما كان فإن جيش الروم المواجه لهم كان عدده ٢٤٠ ألفا .

وكان المسلمين قبل مجيء خالد إليهم متساندين ، كل أمير على أصحابه لا تجمعهم قيادة واحدة ، وما لبث خالد أن جمعهم وخطب فيهم قائلا : « إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي ، وإن من وراكم لو يعلم عليكم حال بينكم وبين هذا ، إن الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم وقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله الله ، إن تأمير بعضكم لا ينفع عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا ، وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلتستعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غد ، حتى يتأمر كلهم ، ودعوني إليكم اليوم ، فأمرؤه .

وسارت الرسل بين المسلمين والروم ، فلم يجد صلح ، وسمع خالد رجلا يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، فقال خالد : بل قل ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال. ودارت معركة من المعارك الخالدة في التاريخ حول اليرموك كان النصر فيها حليف المسلمين وفقدت الروم السيادة على الشام وحرمت من موانئ الشام التي كانت تلجأ إليها سفن الأسطول البيزنطي .

وقد وقعت هذه المعركة الفاصلة في التاريخ في يوم ١٢ رجب عام ١٣ هـ - ٦٣٤ م ، وكان عدد قتلى الجيش البيزنطي فيها نحو ١٥٠ ألفا .

وفي خلال المعركة كان أبو بكر قد استأثرت به رحمة الله ، وتولى عمر الخلافة ، وبادر عمر فعزل خالدًا من إمارة الجيش وولى مكانه أبا عبيدة .

خالد بطل اليرموك الذي أعز الله به الإسلام هو الذي يقول عن نفسه وقد حضرته الوفاة عام ٢١ هـ وهو يبكي : لقيت كذا وكذا زحفاً ، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف ؛ أو رمية بسهم ، أو طعنة برمح ، وها أنا أموت على فراشي حثيف أنفي كما يموت البعير ، فلانامت أعين الجناء . .

نهاية امبراطورية

( ١ )

الامبراطورية الفارسية التي لم تكن تتوقع في يوم من الأيام نهايتها ،  
قد آذنت اليوم شمسها بالغروب .

إن الأسرة الحاكمة من آل أزد شير بن بابك انتهى بها الأمر إلى يزدجر  
الثالث الذي توج على الإمبراطورية عام ٦٣٣ م - ١١ هـ ؛ في عهد أبي بكر  
الصديق رضى الله عنه ، وكان هو آخر ملوك بني ساسان وكان على يديه نهاية  
الامبراطورية الفارسية . ففي عهد عمر ساحت الجيوش الإسلامية في بلاد  
العراق تفتح مدنه ، وتأخذها من الجيوش الفارسية ، مدينة إثر مدينة ، وهزم  
الجيش الفارسي بقيادة رستم في موقعة القادسية عام ١٤ هـ - ٦٣٥ م هزيمة ساحقة ،  
وقتل رستم في المعركة ، واستولى المسلمون على العلم الفارسي الأكبر ، وتوالت  
الفتوحات الإسلامية ، وأخيرا سقطت المدائن عاصمة الفرس ومقر حكم  
يزدجرد ، ثم كانت موقعة جلولاء وفتح حلوان عام ١٦ هـ ، ثم فتحت الأهواز  
عام ١٧ هـ ، وكذلك فتحت رامهرز وتستر في العام نفسه ، وأسر الهرمزان ،  
فبعث به أبو سبرة القائد الإسلامي أسيرا إلى عمر في وفد فيهم أنس بن مالك  
والأحنف بن قيس ، ومما يذكر أن الهرمزان لما قدم المدينة لبس كسوته من  
الديباج المذهب ، وليس تاجه المسكل بالياقوت ، وحليته ، ليراه عمر  
والمسلمون ، وبجثوا عن الخليفة فلم يجدوه ، ثم وجدوه في المسجد نائما متوسدا  
برنسه وكان قد لبسه ليستقبل فيه وفد الكوفة ، فجلس الهرمزان ومن معه  
وعمر نائم والدرة في يده ، فقال الهرمزان : أين عمر ، قالوا هاهو ذا ، فقال  
أين حرسه وحجابه ؟ قالوا : ليس له حرس ولا حجاب ولا كتاب ، قال :  
فينبغي أن يكون نيا ، قالوا بل يعمل بعمل الأنبياء ، واستيقظ عمر من شدة  
صياح الناس فاستوى جالسا ، ثم نظر إلى الهرمزان ، وقال : الحمد لله الذي  
أذل بالإسلام أعداءه ، ثم أمر بنزع ما عليه فنزعوه وألبسوه ثوبا ، فقال له  
عمر : يا هرمزان كيف رأيت عاقبة الغدر وعاقبة أمر الله ، قال : إنما غلبتمونا  
بالإسلام ، ثم أسلم الهرمزان ، وأقام في المدينة ، وكان الذي يترجم بينه وبين  
عمر هو المغيرة بن شعبه لأنه كان يعرف الفارسية .

( ٢ )

واستمرت الفتوحات وأقام يزدجرد بمدينة مرو ، وأخذ يستنجد بملوك  
السند والصين والترك ؛ ودارت معركة نهاوند وانتهت عام ٢١ هـ بهزيمة  
الفرس هزيمة ساحقة لم تقم لهم بعدها قائمة ، وكان العرب يسمونها فتح الفتوح  
وهزم فيها يزدجرد الثالث بعد أن جاهد جنوده جهاد المستميت ، وقاوموا  
مقاومة شديدة دون ما جدوى ، وبهزيمة الفرس في نهاوند سحق الجيش الفارسي  
ولم يستطع الفرس التجمع بعد ذلك في معركة حربية ، وانتهت امبراطوريتهم  
الضخمة ، وملك المسلمون بلادهم .

وأخذ الجيش الإسلامي يزحف على المدن والأصهار فيحتلها دون مقاومة  
وفتحت خراسان عام ٢٣ هـ وكان يزدجرد قد استنجد بملوك الترك والصين  
والصغد ، ولكن النصر كان قد ضاع من يديه إلى الأبد ، وجمع أمواله وخزائنه  
وأراد أن يذهب بها إلى خاقان ملك الترك ، أو إلى ملك الصين ، فقال له  
وجوه قومه : إن هذا رأى سوء ، ارجع بنا إلى المسلمين فنصالحهم فإنهم أوفياء ،  
وأهل دين ، فأبى عليهم ذلك ، فقالوا له : دع خزائنا نردها إلى بلادنا ،  
فأبى ، فاعتزلوه وقتلوه ، وأخذوا منه الخزائن واستولوا عليها ، وانهمز  
يزدجرد ولحق بخاقان عابرا النهر من بلخ إلى فرغانة ، وظل يكتب إلى وجوه  
شعبه يحرضهم على الثورة .

وفي عام ٣١ هـ - ٦٥٢ م قتل يزدجرد الثالث . قتله جماعة من الترك ،  
وقبل إنه اختفى بطاحون ، وأن الطحان غافله وقتله طمعا في الاستيلاء على  
ملابسه الفاخرة .

وبموته انتهت أحلام الفرس في استعادة امبراطوريتهم ، وقد عجل بنهاية  
هذه الامبراطورية : وقوف وجوه الشعب الفارسي ضد يزدجرد رغبة منهم  
في السلام بعد أن ستموا الحرب وأفنتهم المعارك ، كذلك مرض يزدجرد ،  
وتشتت شمل جيشه مما حمله على الفرار من مقاطعة إلى مقاطعة ، حتى ذهب  
إلى بلاد الترك ، وقيل إنه اختفى في مرو بخراسان .

انتهت الامبراطورية الفارسية التي كانت تفرع العالم ، وتذك الدول ،  
والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

مصیر الامبراطور

( ١ )

الامبراطورية البيزنطية في أيامها الأخيرة بعد ماعمرت نحو ألف سنة ، قواتها العسكرية البرية تنخفض روحها المعنوية انخفاضا شديدا ، وأساطيلها البحرية مهمة إهمالا تاما ، والفتن والثورات تهب عليها من كل جانب ، وملك دولة آل عثمان يهددها بأعظم الأخطار ؛ والعاصمة الجميلة ، القسطنطينية ، تفتقر بين يوم وآخر نهاية عرش الامبراطور المحتومة .

لقد تحطمت على حصونها هجمات المسلمين البرية والبحرية من قبل .  
ولكن جيوش محمد الفاتح وأساطيله اليوم تبدو قوية رهيبة مخيفة قادرة على محو القسطنطينية من الوجود ، وعلى الاستيلاء عليها كذلك .  
ولقد ولى السلطان محمد الفاتح عرش الدولة العثمانية بعد موت أبيه السلطان مراد الثانى فى الثالث من فبراير ١٤٥٣ م .

وشعر قسطنطين امبراطور الدولة البيزنطية بالخطر يهدده من كل جانب بسبب مطامح السلطان محمد الفاتح وفتوته ويعدد آماله ورغبته القوية فى الاستيلاء على مدينة قسطنطين الأكبر ، لقد أقسم السلطان ليفتح هذه العاصمة ، وليس هناك شئ يرده عن عزمه الاكيد فى الجهاد من أجل تحقيق تلك الغاية .

وكان الامبراطور قد بادر فطلب من محمد الفاتح زيادة المرتب الذى يدفعه السلطان للدولة البيزنطية نظير تسكفلها بأحد أبناء سليمان بن يازيد الاول واسمه أرخان ، حتى لا يطلق الامبراطور سراح ذلك الأمير ليطالب بالعرش العثمانى ، ويثير الفتن أمام السلطان ودولته .

وقابل محمد الفاتح ذلك بالتحدى وبالاستعداد الضخم للحرب ، وبناء الحصون على سواحل البحر الاسود والأبيض معا ، وخاصة على ضفاف البوسفور ، فأعد جيشا لجبا عدده نحو ربع المليون ، وأسطولا ضخما موعدا بالأسلحة الحديثة والمدفعية القوية .



وفي أوائل إبريل ١٤٥٣ ظهر الجيش العثماني أمام أسوار القسطنطينية ، واحتل الممر الممتد من بحر مرمرة إلى القرن الذهبي محيطا بأسوار المدينة ، وتجمع الأسطول العثماني في « جاليبولي » ثم عبر بحر مرمرة إلى البوسفور وألقى مراساه فيها .

وطلب محمد الفاتح من الامبراطور قسطنطين تسليم المدينة فرفض ، فبدأت المدفعية العثمانية المنصوبة أمام أبراج المدينة تضرب العاصمة البيزنطية المفزعة .

وفي ١٨ إبريل بدأ الهجوم العنيف على أسوار المدينة ، وأخذ الأسطول العثماني يحاول اقتحام القرن الذهبي ، والقضاء على أساطيل الأعداء ومقاومتهم ، ولما لم تنجح محاولة الأسطول العثماني في اقتحام مدخل القرن الذهبي أخذ محمد الفاتح في ٢٢ إبريل ينقل سفن الأسطول من البوسفور إلى داخل القرن الذهبي عن طريق البر ، وركز الهجوم على العاصمة المطوقة من البر والبحر حتى أخذت المدينة المنهارة تستعد لطلب التسليم .

طلب البطريرك وعظماء الشعب إلى الامبراطور قسطنطين أن يترك العاصمة نهائيا وأن يذهب إلى مكان آخر ، ولكن الامبراطور رفض .

وفي ١٢ مايو قام الأتراك بهجوم عنيف ، ثم أرسل السلطان رسوله « إسماعيل حمزة اسفنديار اوغلي » لسكى يحمل إلى الامبراطور البيزنطي نصيحة السلطان بالتسليم ، إذ لا فائدة من الحرب والاستمرار فيها ، لأن المدينة على وشك السقوط ، وعرض الرسول على الامبراطور أن يخرج الامبراطور من المدينة هو وأهله وحاشيته ومن شاء من أهل المدينة إلى البلوبونيز في أمان ، يحكم هناك على أن يتعهد السلطان بحماية الباقين ، وبالحفاظة على حياتهم وممتلكاتهم إذا قبل الامبراطور التسليم ، فرفض الامبراطور .

وفي ٢٧ مايو ١٤٥٣ م تشاور محمد الفاتح مع مجلس الحرب الأعلى

وقرروا مواصلة القتال حتى النصر ، وقرر السلطان نهب المدينة ثلاثة أيام للجيش ، واستمر الهجوم بشدة وعنف حتى دخل الجيش العثماني المدينة ، وقتل الامبراطور في المعركة .

ودخل محمد الفاتح المدينة من باب القديس رومانوس يمتطي صهوة جواده في موكب ضخم وسار إلى كنيسة سانت صوفيا ، فأذن من على قبابها للصلاة ، وصارت مسجداً جامعاً من أعظم مساجد الإسلام ، وبلغ نبأ الفتح عواصم الإسلام الكبرى ، فبعث ملوكها بالتهنئة وبالرسل ، وساد الذعر أوروبا ، وحاول البابا بيوس الثاني جمع شمل أوروبا لقتال الأتراك وطردهم من المدينة ولكنه فشل .

وذهب الامبراطور ، كما ذهب غيره من قبل دون أن يستطيع وقف جيش العثمانيين .

وبسقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك بدأ عصر جديد ، في تاريخ العالم والشعوب .

وأصبحت القسطنطينية عاصمة الدولة العثمانية العتيقة ، ثم صارت بعد حين حاضرة خلافة الإسلام .

خلفاء بني أمية في صفحات التاريخ

( ١ )

حين استولى زعيم الأمويين معاوية بن أبي سفيان عام ٤١هـ — ٦٦١ ميلادية على مقاليد الحكم، وشئون الخلافة الإسلامية، نقل عاصمة الخلافة من المدينة والكوفة إلى دمشق في الشام، وظلت هي العاصمة الكبرى حتى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـ — ٧٥٠ م.

ودمشق هي مدينة جلق القديمة التي أشار إليها حسان في شعره :  
لله در عصاة نادمهم يوما بجلق في الزمان الأول  
ويكاد يكون الإجماع على ذلك<sup>(١)</sup>.

وسموا دمشق : جلق الخضراء ، والغوطة ، وذات العماد ، ولقبت بالفيحاء ، والفيحاء الواسعة من الدور والرياح .

وترتفع دمشق عن سطح البحر بنحو سبعمائة متر ، وتبعد عن البحر الأبيض المتوسط بنحو ستين ميلا ، وتقوم في نجد فسيح من الأرض ، يطل عليها من الشمال جبل قاسيون ، ويشرف عليها من الجنوب الجبل الأسود وجبل المانع ، ومن الغرب جبل الشيخ المعروف بحرمون في التوراة ، وبجبل الثلج عند قدماء العرب ، وهي مدينة سهلية جبلية ، وهبة نهرها الخالد « بردى » الذي كان اليونانيون يسمونه « نهر الذهب » .

وكانت دمشق لقربها من جزيرة العرب ومصر والعراق مدينة تجارية تفصل بين الشرق والغرب ، وظلت عامرة على اختلاف العصور نحو أربعة آلاف سنة ، وقد استولى على دمشق في القديم الآشوريون والبابليون والفرس والفراعة والأرمن .

واقترحها اسکندر المقدوني ودخلت في حكم خلفائه ضمن دولة اليونان ، ثم صارت أعلى ذرة في الإمبراطورية الرومانية بعد انهيار اليونان السياسي ،

---

(١) ٨ دمشق أحمد كرد ، وقيل إن جلق هي كورة غوطة دمشق كلها .

وقبل الميلاد بقرن كامل هاجر إليها النبطيون من جزيرة العرب ، وتتابعت هجرات السلالات والقبائل العربية إليها ، وأخذت تنتشر اللغة العربية رويدا رويدا ، وظلت صبغتها العربية تتكامل طيلة سبعة قرون كاملة حتى بزغ نور الإسلام ، وسطعت أضواؤه المشرقة على أرض جزيرة العرب والشام وبلاد فارس ومصر .

( ٢ )

فتحت الجيوش الإسلامية الظافرة دمشق عام ١٤ من الهجرة — ٦٣٦ ميلادية ، وقد سبق فتحها فتح خالد بن الوليد لغوطتها وانتصاره على بني غسان في يوم فصحهم ، ورفع له للعقاب راية الرسول في أعلى الجبل المطل على المدينة من الشمال ، وكان للعرب قبل فتحها صلات تجارية بها ، فأبو سفيان ابن حرب شيخ بني أمية وأحد زعماء قريش كان كثير ما يفد عليها ، وله حديث طويل مع هرقل عن الرسول ونشأة الإسلام ، وقد رواه البخاري في صحيحه .  
تولى فتح المدينة كل من أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد ابن أبي سفيان . وحاصروها بعد وقعة اليرموك من الشرق والغرب ، ففتح نصفها عنوة ، ونصفها صلحا ، فأجراها عمر أمير المؤمنين صلحا كلها في العام الرابع عشر من الهجرة ، وسار هرقل عنها بفلول جيشه المهزوم وهو يقول : سلام عليك يا ديار سوريا سلاما لالقاء بعده ، وبذلك زالت سيادة بزنطة على هذه البلاد إلى الأبد .

وتولى إمارة دمشق وضواحيها يزيد بن أبي سفيان ، فلما مات عام ٢١ هـ — ٦٤٣ م تولى عليها أخوه معاوية بن سفيان من قبل عمر بن الخطاب وكان من قبل يلى ولاية الأردن لعمر ، وظل معاوية أميرا على دمشق عشرين عاما قبل أن يصبح خليفة وقبل أن تنتقل خلافة المسلمين إلى بني أمية ، فلما أصبح معاوية خليفة للمسلمين كانت دمشق كذلك عاصمة للخلافة ، كما كانت من قبل عاصمة لولايته ، وظل خليفة فيها عشرين عاما أخرى ، بدأت بتنازل الحسن ابن علي له عن الخلافة ، وانتهت بوفاة معاوية .

( ٣ )

تولى مقاليد الخلافة في دمشق طيلة العصر الأموي ثلاثة عشر خليفة ، كان لهم السيادة على العالم الإسلامي كله ، وكانت جيوشهم تسير من نصر إلى نصر ، ويحجى إليهم الخراج من كل مكان يردد شعار الإسلام : « الله أكبر الله أكبر » . . ثلاثة عشر خليفة كانوا غرة الدهر ، وجمع المجد والفخر ، وشعار الظفر والنصر ، هم :

- ١ — معاوية بن سفيان ( ٤١ - ٦٠ هـ : ٦٦١ - ٦٨٠ م ) .
  - ٢ — يزيد بن معاوية ( ٦٠ - ٦٤ هـ : ٦٨٠ - ٦٨٣ م ) .
  - ٣ — معاوية بن يزيد ( ٦٤ - ٦٤ هـ : ٦٨٣ - ٦٨٤ م ) .
  - ٤ — مروان بن الحكم ( ٦٤ - ٦٥ هـ : ٦٨٤ - ٦٨٥ م ) .
  - ٤ — عبد الملك بن مروان ( ٦٥ - ٨٦ هـ : ٦٨٥ - ٧٠٥ م ) .
  - ٦ — الوليد بن عبد الملك ( ٨٦ - ٩٦ هـ : ٧٠٥ - ٧١٥ م ) .
  - ٧ — سليمان بن عبد الملك ( ٩٦ - ٩٩ هـ : ٧١٥ - ٧١٧ م ) .
  - ٨ — عمر بن عبد العزيز بن مروان ( ٩٩ : ١٠١ هـ : ٧١٧ - ٧١٩ م ) .
  - ٩ — يزيد بن عبد الملك ( ١٠١ - ١٠٥ هـ : ٧٢٠ - ٧٢٤ م ) .
  - ١٠ — هشام بن عبد الملك ( ١٠٥ - ١٢٥ هـ : ٧١٤ - ٧٤٣ م ) .
  - ١١ — الوليد بن يزيد بن عبد الملك ( ١٢٥ - ١٢٦ هـ : ٧٤٤ - ٧٤٤ م ) .
  - ١٢ — يزيد بن الوليد بن عبد الملك ( ١٢٦ - ١٢٦ هـ : ٧٤٤ - ٧٤٤ م ) .
  - ١٣ — مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ( ١٢٦ - ١٣٢ هـ : ٧٤٤ - ٧٥٠ م )
- هؤلاء خلفاء بني أمية ، شمس دمشق وملوكها وحكامها طيلة واحد وتسعين عاماً هي مدة حكم الأمويين في العالم الإسلامي .

( ٤ )

وقد بنى الخلفاء في دمشق المساجد والدواوين والقصور ، والمتنزهات ، والقلاع والحصون ، فاستع عمراؤها ، وزادت حضارتها ، وصارت موطناً رفيعاً من مواطن الثقافة والأدب في العالم الإسلامي ، ووفد إليها الناس في مختلف أمورهم ومصالحهم ، وهكذا أصاب دمشق من عناية الأمويين

ما صارت به كعبة المسلمين في كل مكان وأعظم مدن العالم وأجملها ونعم سكانها بالعدل والأمن والثراء والسؤدد، وأبان العرب - كما يقول جستاف لوبون - عن تسامح مع كل مدن الشام، فرضى أهلها بسلطانهم، ولرحوا النصرانية، ويدخلوا في الإسلام أفواجا، وتعلموا العربية.

( ٥ )

وكان خلفاء بني أمية يبسطون نفوذهم وسلطانهم على الأندلس التي فتحت عام ٩٢ هـ - ٧١١ م، وعلى مراکش والجزائر وتونس التي أقام فيها عقبة ابن نافع مدينة القيروان عام ٥٠ هـ - ٦٧٠ م وصارت منذ إنشائها موطنًا من مواطن الثقافة الإسلامية، كما كانت رأيهم تحف على طرابلس وبرقة ومصر وجزيرة العرب والشام وبلاد العراق وفارس وخراسان وداغستان وأفغانستان، وفتح محمد بن القاسم السند للأمويين عام ٩٣ هـ : ٧١٣ م فأصبحت ولاية إسلامية من هذا التاريخ، وأغار الأمويون في الشام على القسطنطينية عدة مرات، وشنوا الغارات السنوية على الأناضول وعلى جزر البحر الأبيض المتوسط : صقلية، سردانية، مالطة، واحتلوا قبرص وكريت ورودس وهاجموا سواحل إيطاليا، وغزا فرنسا الحر بن عبد الرحمن عام ٩٩ هـ - ٧١٧، واستولى السمح بن مالك بعد ذلك بسنوات ثلاث على مدن كثيرة منها، وقام عبد الرحمن الغافقي عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ م بهجوم كبير عليها ووصل بجيشه الكبير إلى بواتيه قرب باريس، فقابلهم شارل مارتل بجيش كبير تمكن من هزيمة الغافقي وجيشه الباسل، في يوم الجمعة ٧ من شعبان عام ١١٤ - ٢ أكتوبر ٧٣٢، وقتل الغافقي، وانسحب المسلمون وفي هذه الهزيمة يقول أديب فرنسي مشهور هو ميسيو كلود فارير: « في سنة ٧٣٢ م حدثت فاجعة كانت من أشأم الأحداث التي نكبت بها الإنسانية في القرون الوسطى، وكان من آثارها أن غمرت العالم العربي طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة، هذه هي الفاجعة التي أريد أن أمقت ذكرها، وأعني بها

الانتصار البغيض الذي ظفر به أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين الذين كان يقودهم الغافقي ، ففي ذلك اليوم المشؤوم تراجعت المدينة ثمانية قرون إلى الوراء ويكفي المرء أن يطوف بفكره في الأندلس ومدنها وحدائقها وحضارتها الخالدة ليعرف ماذا عسى أن تكون قد بلغته فرنسا منذ ذلك العهد السحيق لو انقذها الإسلام العمراني الفلسفي المتسامح السلمي ، ... وغزاة قتيبة بن مسلم عام ٨٧ هـ - ٧٠٦ م بلاد ماوراء النهر ، ففتحت بخارى وسمرقند والصغد وغيرها ، وتعمق في بلاد الهند حتى وصل إلى كاشغر وهي أدنى مدن الصين ، وأرسل عام ٧١٥ م - ٩٦ هـ رسالة إلى إمبراطور الصين يدعو فيه إلى الإسلام ، ودخلت بلاد ماوراء القوقاز كذلك في حكم الأمويين ، ودانت كلها بالطاعة في عهد سليمان بن عبد الملك ، ودخلت بلاد النوبة في حكم المسلمين ، وكذلك أجزاء من سواحل شرق أفريقيا . هذا هو المجد الإسلامي الأكبر الذي شاده الأمويون ، وتركوه تراثا خالدا من تراث المسلمين الروحي والفكري ، ولا يمكن أن ننسى عواصم الثقافة والأدب الكبرى في دولة الأمويين ، من أمثال : دمشق والفسطاط ومكة والمدينة ، والقيروان والبصرة والكوفة ، وسواها من المدن الإسلامية الكبرى ، التي كاغت من أجل الحضارة والمدنية وتقدم الفكر والثقافة والآداب والفنون ، ونشرت راية المعرفة ، وحاربت الوثنية والإقطاع والظلام ، ونقلت العالم من الهمجية إلى المدنية ومن الوحشية إلى الحضارة ، ومن حياة الغابة إلى حياة الإنسانية المهذبة الرفيعة التي سعدت بحكم المسلمين خلال هذه الأيام الغابرة ، أيام المجد الإسلامي الأكبر .

( ٦ )

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن هذه الخلافة الإسلامية الكبرى كانت تدار على أحدث نظام في الإدارة ، وكان الخليفة هو المشرف الأعلى على كل الشؤون العامة وكان يختار ولاية ينيهم عنه في إدارة الولاية والأقاليم والمدن ، وكانت الأقطار الإسلامية مقسمة إلى خمسة أقسام كبرى :

١ - الحجاز وينتظم المدينة ومكة والطائف ، ويقوم الأمير بالمدينة ،



وكان يضاف إليه أحيانا بلاد اليمن وأحيانا تسكون مستقلة بأمير .

- ٢ - العراق وينتظم السكوفة والبصرة وخراسان ويقوم الأمير في السكوفة بعض السنين وفي البصرة بعضها الآخر ، وكانت خراسان تستقل أحيانا بأمير يتصل بالخليفة مباشرة ، كما كانت بلاد اليمامة تضاف إلى إمارة العراق أحيانا .
- ٣ - الجزيرة وأرمينية ، وتنظم بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية .
- ٤ - الشام وكانت مقسمة إلى خمسة أقسام : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين .

٥ - مصر وأفريقية ، وتنظم بلاد مصر وشمال أفريقية ؛ وكانت أفريقية في بعض الأحيان تستقل بوال لها عن مصر ، ولما فتحت الأندلس كانت تابعة لأفريقية ، وفي بعض الأحيان كانت تستقل بأمير .

وكان كل أمير يختار كذلك ولاية له على الأقاليم والمدن التي في إمارته ، ويتمتع بالاستقلال الإداري في إمارته ، يقيم الصلاة بنفسه ، وإليه قيادة الجند ، وجباية الخراج ، والقضاء بين الناس .

ومع عسر المواصلات فقد كانت هذه الولايات كلها تتصل بالخليفة بواسطة البريد الذي استعمله معاوية وخلفاؤه .

وفي هذه الأقسام الإدارية كان الأمراء يتخذون الدواوين التي لا بد منها لضبط شئون الدولة ، ومن بينها : ديوان الخراج وديوان الرسائل وديوان الخاتم .

وقد كانت لغة الدواوين في الولايات المختلفة بلغاتها ، إلى أن عربت الدواوين في جميع البلاد الإسلامية ، وصارت اللغة العربية هي لغة جميعها في شتى الأقاليم والامارات في العهد الأموي .

## الفصل الأخير

هذه دمشق عاصمة خلافة بني أمية الجميلة ، وهذا عرش مروان بن محمد  
أبن مروان بن الحكم يهتز اهتزازا شديدا يكاد ينذر بالخطر ، ويؤذن  
بانتهاك الدولة .

ومروان الخليفة في اضطراب فكري شديد ، وماذا يذكر مروان ويعي  
في ذاكرته من أحداث ؟ هل يذكر ما كان يقال عنه من أنه ابن أم ولد كردية  
كانت لإبراهيم بن الأشتر . فأخذها أبوه يوم قتل إبراهيم حين كان محمد بن  
مروان واليا على الجزيرة وأرمينية ، أو يذكر يوم ميلاده عام ٧٠ هـ ، هذا  
الميلاد الذي كان وسط الأعاصير ، أو يذكر موت والده وما لاقى بعده من  
أحداث ، أو يذكر ولايته للجزيرة وأرمينية وما لاقى فيها من عناء . أو  
أخذه الخلافة بالسيف من ابن عمه إبراهيم بن الوليد وكيف سار في جنود  
الجزيرة فاستولى على قنسرين وحمص وسواها من المدن ، ثم دخوله دمشق  
وجلسه على عرش الخلافة الأموية التي كانت فتوحاتها وأيامها منذ بدأت  
عام ٤١ هـ ، حتى عهد مروان ، غرة في جبين الدولة الإسلامية ، ماذا يذكر  
مروان الخليفة وماذا يدع من ذكريات ، وينفض عن قلبه من آلام ؟ — إنها  
أيام عصيبة مملوءة بالفتن والاضطراب منذ بايعى الشعب بالخلافة في المسجد  
الأموي ، ثم في قصر الخلافة عام ١٢٧ هـ ، حتى اليوم :

ثورة عبد الله بن جعفر بن جعفر أبي طالب بالكوفة ، وثورة إبراهيم بن  
محمد بن علي العباسي بالشام .

ثم ثورة أهل حمص ، فأهل فلسطين ، فثورة سليمان بن هشام بن عبد الملك ،  
ثورة الضحاك بن قيس الشيباني ، التي لم تنته أحداثها إلا عام ١٣٠ هـ ، ثم ثورة  
أبي حمزة المختار بن عوف الأزدي .

ومع هذا كله فقد كان النصر معقودا للوأي في كل هذه الثورات والحروب ،  
ولكن ثورة اليوم تبدو بوجه كالح عبوس .

إن خراسان التي تجول فيها جيوش الدعوة العباسية وتصول بقيادة أبي مسلم الخراساني ، قد شملتها الثورة ، ثم امتدت منها إلى العراق ، وها نحن أولاء في مطلع شهر جمادى الأولى عام ١٣٢ هـ ، وقد بويغ بالكوفة لهذا العباسي الثائر الملقب بأبي العباس ، ولا يدري إلا الله ما المصير .

ليلة حالكة عصيبة قضاها مروان ، مؤرق الجفن ، مسهد العين ، متمللا في فراشه ، وكأنها سنوات متصلة ، لا واحدة وفي آخر الليل أدركته سنة من النوم ، فقام فرعا مضطربا من أحلام من عجة رهيبة .

وفي الصباح نهض مروان فاستعرض الجيوش ونظم العتاد ، ونصب القواد ، وسار مع الجيش الزاحف حتى عسكر بجنده على نهر الزاب لليلتين خلتا من جمادى الآخرة عام ١٣٢ هـ ، ولم يلبث غير قليل حتى وقعت الموقعة العظمى بينه وبين جيش المسودة من العباسيين ، واتصل القتل في جند مروان ، واستمرت الحرب تسعة أيام انتهت بهزيمة مروان ، وهرب الخليفة إلى الشام فصر ، وتبعه الجيش العباسي حتى عثر على مروان في كنيسة في قرية « بوسير » وقبض عليه ، وقتل لليلتين بقيتا من ذى الحجة عام ١٣٢ هـ ، وعقب ذلك تشريد الأمويين والقضاء عليهم في كل مكان ، وهكذا خلص الملك أبنى العباس .

## ( ٢ )

أما أولاد مروان فلا يتحدثنا التاريخ عنهم بشيء كثير ، وخاصة ابنه عبد الله ولي عهده ، وقائده في أكثر المواقع . اللهم إلا ما نجده في تاريخ الطبري من أنه لما قتل مروان ببلدة بوسير من أعمال الجيزة عام ١٣٣ هـ - ٧٥٠ م هرب أبناؤه : عبد الله وعبيد الله إلى أرض الحبشة فلقوا من الأحباش بلاء ، قاتلهم الحبشة فقتلوا عبد الله وأفلت عبيد الله في عدة من معه <sup>(١)</sup> . ويروى أن

---

(١) ١٣٤ : ٩ الطبري ، ويذكر ابن الأثير وابن الوردي أن المقتول هو عبيد الله ه .

عبد الله لما انتهى به الهرب إلى ملك النوبة سأله : لم كنتم تشربون الخمر وهو محرم عليكم في كتابكم ؟ فقال : فعل ذلك عبيد لنا وأتباع وأعاجم دخلوا في ملكنا بغير رأينا . قال : فلم كنتم تركبون على دوابكم بمراكب الذهب والفضة والديباج وقد حرم عليكم ذلك ؟ فأجابه بمثل ما سبق . قال : فلم كنتم إذا خرجتم إلى صيدكم تقحمتم على القرى ، وكلفتهم أهلها مالا طاقة لهم به بالضرب الموجه ثم لا يقنعكم ذلك حتى تمشوا في زروعهم فتفسدوها في طلب دراج قيمته نصف درهم ، والفساد محرم في دينكم ؟ فأجابه بمثل ما سبق . فقال له : لا ولكنكم استحللتم ما حرم الله ، وفعلتم ما نهاكم عنه ، وأحببتم الظلم ، وكرهتم العدل . فسلبكم الله عز وجل العز ، وألبسكم الذل ، والله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد ، ثم أبدى تخوفه من أن تعمه معهم ، وأمره بالخروج من عنده قبل ثلاث وإلا قتله .

### ( ٣ )

وأما مزنة امرأة مروان بن محمد فتسكت أحاديث الرواة عنها طيلة عهد السفاح والمنصور ، حتى ولى المهدي العباسي الخلافة عام ١٥٨ هـ ، وجلس على عرش خلافة بنى العباس في بغداد ، واتصل عدله وبره ، وذاع فضله ومعروفه بين الناس .

وبعد سنوات قلائل من حكم المهدي دخل على حراس قصر الخلافة في بغداد امرأة مارأى الحراس أجمل منها ، ولا أسوأ حالا كذلك منها ، وعليها ثياب ماتستر ببعضه موضعاً من بدنائها إلا انكشف موضع آخر ، وإذا هي نسأل الحرس عن جناح الخيزران امرأة الخليفة المهدي ، وتطلب الإذن بالمشول بين يديها وطردها الحرس ، فبكت ووقفت بين يأس الانصراف أو مل المشول بين يدي زوج الخليفة .

ورق قلب أحد الحراس عليها فأوصلها إلى وصيفة الخيزران وجفاة دخلت الوصيفة على الخيزران في مجلسها من قصر الخلافة ، ومع الخيزران

زينب بنت سليمان بن علي الهاشمي العباسي ، فبادرت الخيزران وصيفتها قائلة :

— ماذا ورايك يا ميمونة ؟ — ياسيدي ، سيدة باللباب مارأيت أجمل منها ، ولا أتعس وأشقى حالا من حالها ، تلبس ثوبا مرقعا ماتستر به جزءاً من جسمها إلا انكشف جزء آخر ، إنها تستأذن على مولاتي — والتفتت الخيزران إلى جليستها زينب بنت سليمان بن علي العباس الهاشمي قائلة :

ما ترين ؟ .

زينب : لاضير ، تسأل الوصيفة عن اسمها وقصتها ، وتعود اليك ، والرأى بعد ذلك لك .

وصيفة الخيزران : قد والله جهدت ، ومكثت معها وقتاً طويلاً لعلها أن تبوح لي باسمها وقصتها فما فعلت ، وأرادت الإنصراف فنعمتها .

زينب بنت سليمان : وماذا عليك أن تأذني لها ، فانك منها بين مكرمة أو ثواب ؟ .

— والتفتت الخيزران إلى وصيفتها ميمونة : إيذني لها ، لتدخل .

— وذهبت الوصيفة وعادت معها امرأة تحكي الخيزران جمالا وعظمة ، ولكنها في تعاسة وسوء مظهر وشقاء حال ، مما لا يستطيع البيان التعبير عنه ، ثم سارت على البساط الممدود ، ووقفت حيال الخيزران في أدب نبيل ، وقالت :

— السلام عليكم .

والتفتت الخيزران متعجبة إليها ، وقالت :

— وعليك السلام ، من تكونين .

— أنا مزنة امرأة مروان بن محمد .

— الخيزران : مزنة ، مزنة امرأة مروان ، لحيالك الله ولا أقر عينك ، الحمد لله الذي أزال نعمتك وعزك ، وصيرك نكالا وعبرة ، أتذكرين يا عدوة الله حين أتاك أهل بيتي يسألنك أن تكلمي الخليفة مروان في خلافته

ليأمر بإنزال جثمان إبراهيم بن محمد العباسي من الخشبة التي أمر بصلبه عليها ،  
فتلقيتهم بلقاء خشن ، وطردهم من بيتك طرداً غير حميد ، الحمد لله الذي أزال  
نعمتك ونعمة آل مروان وخلافتهم .

مزنة وهي تبسم في أدب وحلم وطول أناة ، وثغرها يتلألأ : أى شيء  
يا بنت عم ؟ أى شيء أعجبك من صنع الله عز وجل بي على العقوق ، حتى  
أردت أن تتأسي بي ، السلام عليكم . وسارت مزنة ، ثم سارت ، وثغرها  
يبسم ، وقلبها يبكي .

زينب بنت سليمان للخيزران : نعمة ومكرمة ساقها الله جل جلاله  
إليك يا سيدتي ، وهديته منه إلينا ، ثم تصنعين معها هذا الصنيع ،  
والله يا خيزران لا يكون إخراجها مما مربها من شقاء إلا على يدي أنا ،  
ومضت زينب وسارت وراء مزنة ، حتى أدركتها في نهاية جناح الخيزران ،  
فأمسكت بها ، وإذا الخيزران وراءها تمسك بمزنة ، وتلفتت إليها قائلة :  
المعذرة يا أختي إلى الله عز وجل وإليك ، فلقد ذكرت حين فوجئت بلبائك  
مانالنا من الأحداث في عهد زوجك مروان ، فكان مني ماوددت أني لم أفه  
به ، ولم أملك حينئذ لسانى ، معذرة يا أختي .

وهمت الخيزران أن تعانق مزنة ، فبادرتها مزنة بوضع يدها على صدر  
الخيزران تبعدها عنها وهي تقول : لاتفعلى يا أختي ، إني على حال أصونك من  
الدنو مني بسببها ، إن ثيابي على ماترين ، وجسمي على ماتشاهدين .

وأخذت الخيزران بيد مزنة ، وصاحت بصيقاتها : ادخلن مع سيدتكن  
الحمام ، ففضت ومضين معها ، وظلت الخيزران وزينب تنتظرانها حتى تعود .  
وبعد ساعة عادت إحدى الوصيفات إلى مولاتها الخيزران وهي تقول :  
قد خرجت السيدة من الحمام ، وهي الآن واقفة أمامه .

— الخيزران : خذى بيدها إلى الغرفة القريبة لتستريح .

— الخيزران لإحدى الوصائف : احملى إليها دايى ، واهملى إليها الطيب .  
وبعد قليل عادت مزنة وقد لبست الثياب التي أهديت إليها من الملكة

وتطيت ، فقامت إليها الخيزران ، وقام معها من في مجلسها ، وأخذت الخيزران ومن معها يعانقنها ، وهى تقول : أما الآن فنعم ، ثم أجلستها الخيزران بجوارها ، وأمرت بالطعام ...

فبادرتها مزنة قائلة . والله ما فيكن أحوج إلى الطعام منى ، فلما حضر الطعام أخذت مزنة تأكل ، وتقدم للخيزران ومن معها من الطعام وكأنها في منزلها . وانتهى الجميع من الطعام ، وأخذن يشربن القهوة ..

وبادرت الخيزران مزنة قائلة :

من لك ياسيدتى ممن تحبين أن نكرمهم لأجلك من أبناء أو أقارب أو أهل ؟

مزنة : الحمد لله ، ليس لى أحد من خلق الله تعالى .

الخيزران : إذا فهل لك فى المقام عندنا على أن نخلى لك مقصورة ونحول إليها جميع ما تحتاجين إليه ، ونتمتع بك وبحسن حديثك وقصة حياتك قبل خلافة مروان وبعد خلافته ؟

مزنة : لقد جمئت إليك وأنا على أسوأ حال ؛ وإذا كان الله عز وجل قد تفضل على بك وبهذه النعمة فلا أقل من الشكر لله ولك ، أدام الله نعمته ، فافعل ما تحبين وما يبدو لك .

فنهضت الخيزران ، ويدها فى يد مزنة ووراءهما الوصيفات والجوارى ، وطافت الخيزران بمزنة فى المقاصير تخيرها وهى تأبى والخيزران تلح ، فاختارت أوسع المقاصير وأحسنها ، فملاها الخيزران بالجوارى والوصائف والخدم والفرش والملابس والزينة والهدايا . ثم قالت لها : سنصرف عنك الآن ، وهذا منزلك ، وسنتركك حتى تفرغى من تنظيمه ، وسارت الخيزران ومعها زينب بنت سليمان ووراءها جوارىها ووصيفاتها ، والتفتت الخيزران إلى زينب قائلة :

-- هذه سيدة تعسة الخط ، قتل زوجها وأبناؤها وأهلها وعرضها الفقر



بنا به ، وليس يدخل عليها السرور إلا المال ثم أمرت بأن يحمل إليها خمسة آلاف دينار ومائتا ألف درهم ، وأرسلت إليها تقول لها : هذا المال مالك وتحت تصرفك فضعيه في خزائنك . أما حياتك ومراتب خدمك ووصائفك فمن خزينة الخلافة .

وبعد قليل امتلأ القصر بالأصوات العالية ايذانا بقدم الخليفة المهدي ، ودخل ليستربح في مقصورته ، وبادرته الخيزران والله ياسيدي عندي لك خبر طريف .

-- المهدي : ماهو ؟

الخيزران : إنه أعجب ما سمعت ، وأخذت تقص عليه القصة ، وهو يتعجب ، ويقول كيف بدأت بهذا العنف ، أهذا مقدار شكرك لربك عز وجل ، وقد أمكنك من عدوك وأظفرك به على هذه الحال التي تصفينها ، والله لولا مكانك مني لحلفت أن لا أأكلك أبدا .

وصاح المهدي في الخدم ومعه صرة فيها عشرة آلاف دينار ومائتا ألف درهم ، فحضرت وصيفة من وصائف الخيزران ، فقال لها الخليفة : ناولي هذه الصرة لسيدتك منة وأبلغها سلاحي وقولي لها لولا خوفي أن تحتشم مني لصرت إليها مسلما ، ومخبرا إياها بسروري بها ، وقولي لها : الخليفة يقول لك إنه أخوك وجميع ما ينفذ فيه أمره فأمره أنفذ فيه ، وسارت الوصيفة فأبلغت سيدتها منة كل ما سمعته من الخليفة .

فبادرت منة إلى المهدي ؛ ومثلت بين يديه ، فلقبها الخليفة أحسن لقاء ، وأقامت في مجلسه ساعة تحدته بقصتها ، ثم انصرفت إلى مقصورتها .

ترى لو أمكن أن أقص عليك أيها القاري قصة منة من بدئها لختامها ، كما خرجت من فمها للخيزران وللمهدي ، ماذا كنت تقول ؟

لقد كانت حياة منة نهاية دولة . وخاتمة عرش ، وكانت قصتها الفصل الأخير في مسرحية خلافة بني أمية .

# من التاريخ الثقافي والأدبي للإسلام في عصر بني أمية

## ( ١ )

كانت تسير اللغة العربية والأدب العربي والثقافة الإسلامية حيثما تسير الفتوحات الإسلامية ، فحيثما يفتح المسلمون البلاد ، تقيم فيها حاميات من جنود المسلمين ، وعلى هذه الحاميات قواد من العرب ، وبجانب الجيش أمراء يحكمون هذه البلاد ، وغالباً ما يكونون هم أمراء الجيوش ، وبجانبيهم تنزل القبائل العربية المهاجرة تتكلم اللغة العربية ، وتذيع الأدب العربي ، وتأخذ لهجتها ولغتها العربية في الذيوع بين سكان البلاد الأصليين ببواعث الجوار والاختلاط والسيادة والمصالح المشتركة ، ويقبل من يدخلون في الإسلام من أهل البلاد الصميمين على تعلم لغة العرب ، والتأدب بأدابهم ، وحفظ أشعارهم ، وتعلم علومهم . ومن ثم انتشرت اللغة وذاع الأدب في كثير من البلاد المفتوحة . وقامت مواطن الأدب في المملكة الإسلامية المترامية الأطراف التي كانت تستظل بظل الأمويين ، وتتجه إليهم في كل مناسبة . وإلى عاصمتهم الكبرى دمشق عاصمة الإسلام ، وحاضرة خلافة المسلمين إبان حكم الأمويين .

## ( ٢ )

ومن الجدير بالذكر أن نقول : إن بيئة الحجاز شاع فيها الغناء وخاصة مكة والمدينة . ولعل السبب في ذلك كثرة أبناء الموالى في الحجاز وكثرة الترف في مدن الحجاز ، وكثرة الفراغ كذلك وظرف الحجازيين ورقتهم ، ويروى أنه كان لمعنى مكة مذهب في الغناء ، ولمعنى المدينة مذهب كذلك ، وكان بين الفريقين مفاخرات .

واشتهرت بيئة الحجاز الأدبية بالغزل القصصى والعذرى ، وقل هنا الهجاء والمدح ، وكان من شعراء مكة : عمر والعرجى وابن قيس الرقيات وأبو العباس الأعمى ، كما اشتهر في المدينة الأحموس وإسماعيل بن يسار وإخوته ، وعبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم .

واشتهرت بوادي الحجاز ومثلها نجد بالغزل العذرى . .

وكانت الحجاز مهد المهاجرين والأنصار ، ورجال قريش وأشراف العرب وموطن الصحابة وسادة المسلمين ، وفيها زعماء البيت العلوي : الحسن والحسين وأبناء الخلفاء من أمثال عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن أبي بكر ، وفيها أمثال عبد الله بن الزبير وسواهم من الطامحين في الخلافة والمناوئين للأمويين . وقد استعمل الأمويون مع المعارضة في الحجاز سوط الرهبة والفرع ، ونذروا الأموال الضخمة ، فبعد أن كان عطاء الحسن أو الحسين في عهد عمر خمسة آلاف درهم في العام صار عطاء كل منهما في عهد معاوية ألف ألف درهم .

وقد قضى يزيد على ثورة الحسين بمنتهى الشدة عام ٦١ هـ - ٦٨١ م ، وقتل الحسين في كربلاء من أرض العراق ، واستباح يزيد حرمة المدينة وبطش بزعمائها في موقعة الحرة المشهورة .

وحكم عبد الله بن الزبير الحجاز تسعة أعوام نودى فيها بلقب الخلافة ، وذلك من عام ٦٤ هـ - ٦٨٤ م حتى ٧٣ هـ - ٦٩٢ م وحاصره الحجاج في مكة ورمى السكبة بالمنجنيق وسلم ابن الزبير نفسه وقتل هو وأنصاره ، وكان له فضل كبير في تعمير السكبة وبنائها على قواعد إبراهيم وإسماعيل عام ٦٥ هـ . وكانت مجامع المدينة أرقى المجامع الثقافية في العالم الإسلامي وأحفلها بالشعر الغنائي ، وكانت لها شهرة بالترف والغناء واللهو المباح .

أما بيئة العراق فقد ذاعت شهرتها بالشعر السياسي وكثرت فيها الأحزاب السياسية وثورات المعارضة التي قضى عليها الأميران : زياد بن أبي سفيان المتوفى عام ٥٣ هـ - ٦٧٣ م ، والحجاج بن يوسف الثقفي المتوفى عام ٩٣ هـ - ٧١٢ م ، بمنتهى الشدة والقسوة والبطش .

أما الشام فكانت مقر الخلافة ومستقر الحزب الأموي الحاكم وأعوانه وجيوشه الجرارة من جند الشام .

وأما مصر فكان النفوذ فيها للبيت الأموي ، وتنازعها عبد الله بن الزبير

ومروان بن الحسك، ولسكنها خلصت للأمويين وحدهم بعد قليل .  
وقد امتازت العراق بنشاط الأحزاب السياسية فيه ، وكثرة الفرق الدينية ، واشتهرت بمجامع العراق بالتبريز في علوم اللغة ، وذلك :

١ — لشدة الاحتياج إليها في العراق لفساد المملكات فيه بالاختلاط وكثرة عناصر الموالي بين ربوعه .

٢ — تعدد العناصر والثقافات والأفكار والأجناس في العراق وامتزاجها .

٣ — كان العراق موطن السريانية ، وكان للسريان قواعد في منظمة اللغة والنحو .

وكان بين البصرة والكوفة منافسة شديدة في الأدب والعلم ، ولكن شهرة البصرة كانت باللغة وعلومها من نحو وغيره ، وذلك لتبحرها في العمران ، ولقربها من البادية التي عرف أهلها بالفصاحة وصدق اللهجة .  
أما الكوفة فقد ذهبت شهرتها بعلوم الشعر وروايته .

ومن أشهر مجامع الأدب والشعر في العراق : مرصد البصرة ، وكناسة الكوفة .

### ( ٣ )

وكانت أهم مواطن الأدب والثقافة في عصر بني أمية هي مكة والمدينة والبصرة والكوفة ودمشق والقسطنطينية :

١ — أما مكة : فهي البلد الحرام ، مولد رسول الله ، ومهبط الوحي ولما فتحها الرسول خلف فيها معاذ بن جبل يفقه أهلها ، وكان معاذ من أفضل شباب الأنصار علماً وحلياً ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ، وكان يعد من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ، ومن أقرئهم للقرآن ، ومن جمع القرآن على عهد الرسول ، وقد روى عنه ابن عباس وابن عمر ومات عام ١٨ هـ في الشام .

ولما خرج معاذ إلى الشام قال عمر : لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها  
في الفقه والفتيا » طبقات ابن سعد ، مجلد ٢ .

ومن علماء مكة : عبد الله بن عباس ، وكان يجلس في البيت الحرام ، يعلم  
التفسير والحديث والفقه والأدب ، وهو وتلامذته يرجع إليهم الفضل  
في شجرة مكة العلمية ، وتوفي عام ٦٨٨ م .

ومن علماءها : عطاء بن أبي رباح ، وطاوس بن كيسان ، ومجاهد بن  
جبير ، وثلاثتهم من الموالى ومن التابعين ،

وكذلك كان من علماءها من التابعين ومن الموالى من الطبقة الخامسة بها :  
سفيان بن عيينة ، ومسلم بن خالد الزنجي وكانا من أساتذة الشافعي الذي ولد  
في غزة ، وحملته أمه صغيرا إلى مكة ، فتعلم الأدب في باديتها ، وحفظ الشعر ،  
وتعلم العربية ، ونشأ في مدرستها يأخذ الحديث والفقه عن علماءها ، ولما قارب  
العشرين من عمره تحول إلى المدينة يتم دراسته فيها .

وكانت المجالس الأدبية كثيرة في مكة بين الشعراء ، ولا سيما في مواسم  
الحج ، كما كانت تعقد في المسجد الحرام ، روى المبرد في كاملة<sup>(١)</sup> أن ابن  
عباس كان بالمسجد الحرام ، وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج  
يسألونه ، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبغين موردين ، حتى دخل  
فجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقال : أنشدنا فأنشده رائيته المشهورة التي  
فتح بها عمر صفحة جديدة في تاريخ الغزل ، ونقله من مظهره التقليدي إلى  
لون قصصي جديد كل الجدة عد عمر زعيمه وأبا نشأته ، وأخذ عمر ينشد :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر غداة غد أم رائح متهمجر ؟  
حتى أتى على آخرها ، فأقبل نافع على ابن عباس ، وقال له : يا ابن عباس .  
إننا نضرب إليك أكباد الإبل . نسأل عن الحلال والحرام ، فتتأقل عنا ،  
ويأتيك غلام مترف من قریش فينشدك :

---

(١) ١٤٤ و ١٤٥ ج ٢ الكامل .

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت ( فيخزي ) ، وأما بالعشى ( فيخسر )

فقال له ابن عباس : ليس هكذا قال ، إنما قال :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشى فيخسر

فقال له نافع : ما أراك إلا قد حفظت البيت ، قال أجل بل إن شئت أن أنشدك القصيدة فعلت ، قال فإني أشاء ، فأنشده القصيدة كلها .

٢ — وأما المدينة : فكانت لها شهرتها الأدبية ، وذوقها الحساس ، ونقدها اللماح ، من لدن الجاهلية — حتى كان النابغة يقول : « دخلت المدينة وفي شعري عهدة ، وخرجت منها وأنا أشعر الناس » . وجاء الإسلام وهاجر إليها الرسول صلوات الله عليه ، وكان له شعراء يناخون عن دعوته ، وينودون عن رسالته ، وعلى رأسهم حسان بن ثابت .

ويروى ابن عبد ربه عن أنس بن مالك أنه قال قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر . قيل له : وأنت يا أبا حمزة قال وأنا . وابن سلام الجمحي حين يتحدث عن شعراء القرى العربية ( مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين ) يقول : أشعر هذه القرى قرية المدينة .

وكان حسان بن ثابت ينشد الشعر في هجاء قريش خصوم الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقول له : قل وروح القدس معك ، والله لشعرك عليهم أشد من وقع الحسام في غبش الظلام . ويروى أن عمر مر ذات يوم بحسان ، وهو ينشد شعره في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم فقال له : أرغاه كرغاه البكر ؟ فقال حسان دعني من هذا يا عمر ، فوالله لقد كنت أنشد في هذا المكان من هو خير منك فلا يغير علي شيئاً .

وتتابعت الأحداث على المسلمين وقامت دولة الأمويين ، فكانت المدينة تحمل دائماً لواء المعارضة للحاكمين ، وعاد شعراؤها إلى ما كانوا عليه أيام الجاهلية من هجاء لاذع ، وتنازع وتقاذف ، حتى كان عبد الرحمن بن حسان

يهجو معاوية هجاء قبيحا حين استلحق زيادا ، واستفحل الشر بينه وبين عبد الرحمن بن الحكم في المدينة ، فتهاجيا وتفاحشا .

وكان للشعراء فيها مجالس ، يتناشدون فيها الشعر وينقدونه ، ويستعرضون منه ما يعيرون من رديئه ، ويستحسنون من جيده . يروى أن عمر بن أبي ربيعة قدم المدينة ، فاجتمع به الأحوص ونصيب وكثير ، فتحدثوا مليا وأفاضوا في ذكر الشعراء ، فأقبل كثير على عمر ، فقال له : إنك لشاعر لولا أنك تشبب بالمرأة ثم تدعها وتشبب بنفسك ، أخبرني يا هذا عن قولك :

ثم اسبطرت تشتد في أثرى تسأل أهل الطواف عن عمر<sup>(١)</sup>  
أراك لو وصفت به ذا هرة أهلك ألم تكن قد قبحت وأسأت وقلت  
الهجر إنما توصف الحرة بالحياء والإباء والبخل والامتناع .. ألا قلت كما قال  
الأحوص :

أدور ولولا أن أرى أم جعفر بأبياتكم ما درت حيث أدور  
وما كنت زوارا ولكن ذا الهوى وإن لم يزر لا بد أن سيزور  
لقد منعت معروفها أم جعفر وإنى إلى معروفها لفقير  
فانكسرت نحوه عمر ودخلت الأحوص الخيلاء . فأقبل كثير على  
الأحوص وقال له : لقد أبطل آخرك أولك ، أخبرني عن قولك :

فان تصنى أصلك وإن تبني بهجر بعدد وصلك لا أبالي  
أما الله لو كنت حرا لباليت ولو كسر أنفك . ألا قلت كما قال نصيب :  
بزينب ألم قبل أن يرحل الركب وقل إن تملينا فما ملك القلب  
فانكسر الأحوص ودخلت نصيبا زهوة ، فلما رأى أن الكبرياء قد  
دخلته التفت كثير إليه وقال : وأنت يابن السوداء أخبرني عن قولك :

---

(١) اسبطرت : أسرع . تشتد : تعدو .



أهم بعدد ما حيت فان أمت فوا كبدي من ذا يهيم بعدى؟<sup>(١)</sup>  
أهمك ويحك من يهيم بها بعدك؟ فلما أمسك كثير أقبل عليه عمر،  
فقال له: قد أنصتنا لك فاسمع، أخبرني عن تخيرك لنفسك وتخيرك لمن تحب  
حيث تقول:

ألا ليتنا يا عز من غير ريبة بعيران نرعى في الخلاء ونعزب<sup>(٢)</sup>  
كلانا به عر فن يرنا يقل على حسنهما جرباء تعدى وأجرب<sup>(٣)</sup>  
إذا ما وردنا منهلاً صاح أهله علينا فما ننفك نرمي ونضرب  
وددت وبیت الله أنك بكرة هجان، وأنى مصعب ثم نهرب<sup>(٤)</sup>  
تكون بغيري ذى غنى فيضيعنا فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب  
فقد تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمى والطرء والمسخ فأى مكروه  
لم تمن لها ولنفسك؟

وهكذا كانت المدينة تعج بالشعراء الذين يقولون فلا يزالون من سطوة  
حاكم ولا يرهبون قوة ظالم، وبالنقاد الذين ينقدون فيحسنون . . ومن هنا  
كانت عيناثرة بالشعر، ومنبعا فياضا بالأدب، لا يغيض ماؤه، ولا يحول  
رواؤه.

وكانت المدينة من أهم مراكز الثقافة العربية الإسلامية منذ الهجرة،  
فقد هاجر إليها النبي صلى الله عليه وسلم وعلم بها أكبر تعاليم الإسلام، وكانت  
مقام كثير من الصحابة الذين تلقوا عن النبي ورووا أحاديثه، وكان بها كثير

- 
- (١) أنشد البيت في مجلس عيد الملك فنقده وقال: الجيد أن يقول:  
أهم بعدد ما حيت فان أمت فلا صلحت دعد لدى خلة بعدى  
(٢) نعزب: نبعث في المرعى.  
(٣) العر بالضم والفتح: الجرب،  
(٤) البكرة الناقة الفتية، ناقة هجان بيضاء اللون كريمة. المصعب الفحل الذي  
يترك فلا يركب.

من الموالي الذين أتى بهم أسرى من الممالك المفتوحة وأسلموها وتلقوا العلم من الصحابة وقد اشتهرت المدينة بالعلوم الدينية من تفسير للقرآن ومدارسة للحديث واستنباط الأحكام منهما ، واشتهر من علمائها زيد بن ثابت (١) ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب من الصحابة ، ثم سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير بن العوام (٢٣ - ٩٤ هـ) من التابعين ، ومن عندهم كان الإمام مالك ابن أنس صاحب المذهب المشهور .

ومن علمائها صالح بن كيسان وكان يؤدب عمر بن عبد العزيز ابن مروان . ومن علمائها كذلك : ابن شهاب الزهري القرشي ( ٥١ - ١٢٤ هـ ) .

ولم تقتصر المدينة على الشهرة في المسائل الدينية بل نبع فيها كثير من رجال التاريخ كمحمد بن إسحاق والواقدي (٢) ، وهما يعدان من أشهر المصادر الأولى للسيرة والمغازي ، وقد ساعد المدينة على بلوغها هذه المنزلة أنها كانت مقر الخلافة في عهد الراشدين ومجتمع الموالي الذين سبوا من مختلف البلاد الإسلامية وأغلبهم من عناصر متحضرة . ومن برعوا في النادرة والفصاحة في المدينة الغاضري وأشعب ، وفي الغناء معبد .

٣ - وأما البصرة والكوفة : فهما أشهر مدن العراق ، والعراق قطر شهر من قديم الحاضرة ا تداولت عليه أهم كثيرة متمدنة وترك في آثارها العلمية والفنية ، وهو إلى ذلك قطر غني خصب كثرت مياهه وخيراتاه ، وقد أسست هاتان المدينتان في عهد عمر بن الخطاب (٣) ونزل بهما كثير من الصحابة

---

(١) يروى أنه ما كان عمر ولا عثمان يقدمان عليه أحدا في القضاء والفتيا والفرائض والقراءات ، وظل كذلك في عهد علي ومعاوية وتوفي عام ٤٥ هـ ، وكان ابن عباس يأخذ بركابه ويقول : هكذا يفعل بالعلماء .

(٢) توفي عام ١٠٧ هـ وله « أخبار مكة » و « فتوح الشام » ،

(٣) اختطت البصرة عام ١٤ هـ ، ولم تعمّر إلا عام ١٧ هـ ، واختطت الكوفة

في هذا العام ١٧ هـ .

واختلط فيها العرب بالموالى بالتزواج والسكنى ، وأصبحتا بعد قليل من أكبر مراكز الحياة العلمية ، فكان في الكوفة عبد الله بن مسعود من الصحابة وشريح والشعبي وسعيد بن جبير من التابعين ، ثم أبو حنيفة النعمان إمام المذهب المنسوب إليه ، واشتهر من علماء البصرة أبو موسى الأشعري م ١١٠ هـ وأنس بن مالك من الصحابة م ٩٢ هـ ، ثم الحسن البصري م ٧٠ هـ وابن سيرين م ١١٠ هـ من التابعين ، واشتهرت هاتان المدينتان أيضا بالنبوغ في علوم النحو واللغة ، وتفوقت البصرة في ذلك ، فكان من علمائها أبو عمرو ابن العلاء . والخليل بن أحمد ، والأصمعي ، واشتهر من الكوفيين الكسائي ، وكان بين المدينتين تنافس في اللغة والأدب والصرف وعلم الكلام . ولسكل علماء يتعصبون لمذهبهم وينصرونه بحججهم ، وكان الكوفيون على الجملة ، أكثر استعمالا للقياس ، والبصريون أكثر إشارا للسمع ، وكان يعيش في البصرة الفرزدق وجريروفي الكوفة السكيت بن زيد الأسدي وذو الرمة .

٤ — وأما الفسطاط : فكانت في مقدمة المـدن الإسلامية التي ازدهرت فيها علوم العرب الدينية واللغوية واختطت عام ٢١ هـ وأول من اشتهر بها من العلماء : عبد الله بن عمرو بن العاص أحد كبار الصحابة ، ثم عبد الله بن لهيعة ٩٦ - ١٦٠ هـ وهو من أكبر المصادر الذين يروى عنهم كثير من الأحداث التاريخية في فتح العرب لمصر ، ثم الليث بن سعد ( ٩٤ - ١٧٥ هـ ) أحد الأئمة الذين يقرون بمالك وأبي حنيفة لولا أن تلاميذه أضاعوا مذهبه ، ثم نزل بها الإمام الشافعي ودرس فيها ووضع مذهبه الجديد . ومن علمائها كذلك نافع م ١٢٠ هـ ، هذا وقد وفد على الفسطاط من الشعراء : جميل وكثير ونصيب والرقيات وأيمن بن خزيم وأقام فيها أبو العيال الهذلي م ٤٦ هـ ، وسواهم من الشعراء .

وقد دخلت مصر في ظلال الحكم الإسلامي عام ٢٠ هـ - ٦٤٠ م بفضل عمرو بن العاص ٤٧ ق هـ - ٤٣ هـ ٦٦٣ م « وقد فرغ ابنه عبد الله بن عمرو

ابن العاص (٣٦ ق هـ - ٦٨ هـ : ٦٨٨ م) للعلم والإرشاد وتهذيب الناس .  
وهاجر إلى مصر من الصحابة والتابعين الكثيرون ، وهاجر كذلك إليها  
الكثير من القبائل العربية .

وقد حكم مصر أثناء خلافة الأمويين واحد وعشرون والياً اثنان منهم  
وليا الحكم مرتين وواحد وليه ثلاث مرات ، وحكم أحدهم البلاد نائباً عن  
ابن الزبير ولم يلبث أن عزله الخليفة مروان ، وكان خمسة من هؤلاء من  
بيت بنى أمية ، ومنهم : عبد العزيز بن مروان ( ٦٥ - ٨٦ هـ ) وعبد الله بن  
عبد الملك الذى وليها عام ٨٦ - ٧٠٥ م وقد أصدر عام ٨٦ هـ أمراً باستعمال  
اللغة العربية فى المعاملات الرسمية ، وبذلك أخذ أهل مصر يقبلون على تعلم  
العربية ، وينصرفون عن اليونانية والقبطية تدريجاً . وفى عام ٨٦ هـ حولت  
دواوين مصر إلى العربية ، وكان آخر الأمراء عليها عبد الملك بن مروان  
الذى ولى مصر عام ١٣٢ هـ . وقد وليها الوليد بن رفاعة الفهمى القيسى قبل  
عام ١٠٩ هـ .

ومن علماء مصر فى هذا العهد : أبو عبيدة المغافرى ، ونافع المتوفى عام  
١٢٠ هـ ، وقد بعثه عمر بن عبد العزيز ليعلم أهلها السنن ، وعبد الله بن عمرو بن  
العاص المتوفى عام ٦٨ هـ ٦٨٨ م ، والليث بن سعد ( ٩٤ - ١٧٥ هـ ) وابن لهيعة  
( ٩٦ - ١٦٠ هـ ) .

ووفد على مصر فى عهد عبد العزيز بن مروان : نصيب وجميل والليث  
وكثير وابن قيس الرقيات وأيمن بن خزيم .

٥ — وأما دمشق : فهى عاصمة الأمويين ومنازة العلم والثقافة والأدب  
ومقصد الناس من كل حـدب وصوب ، وبها كثير من العلماء والأدباء  
والشعراء ، فوق من كانوا يفقدون إليها من كل جهة رغبة فى المعرفة ، أو  
حرصاً على مال الخلفاء والأمراء .

ومن اشتهر فيها من المسيحيين يوحنا الدمشقي .  
وقد أخذ خالد بن يزيد بن معاوية صناعة الطب والكيمياء والنجوم عن  
مسيحي الشام وتوفي عام ٨٩ هـ .  
وكان سالم مولى هشام وصاحب ديوانه يعرف اليونانية ويترجم بعض  
رسائل أرسطو .  
وكان عدى بن الرقاع يعيش في الشام .  
وكان في الشام : معاذ وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وعمر بن  
عبد العزيز والأوزاعي ورجاء بن حيوة وسواهم .  
وقد أخذت اللغة القرشية تسود الشام بعد الفتح الإسلامي بعد أن كانت  
السيادة للغة الآرامية أو اليونانية .

( ٤ )

مصادر البحث :

دائرة المعارف الإسلامية في الكلام على : مصر — الفسطاط —  
البصرة — الكوفة — الشام — دمشق — الخ .  
معجم البلدان لياقوت — خطط المقرئ .  
عيون الأخبار لابن قتيبة .  
العقد الفريد لابن عبد ربه .  
وفيات الأعيان لابن خلكان .  
شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .  
فجر الإسلام الجزء الأول . .  
الحضارة الإسلامية لـ كـرد علي — النقائص  
الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام — قصة الأدب في مصر  
محاضرات في تاريخ الأهم الإسلامية الجزء الثاني للشيخ محمد الخضرى  
أخبار مكة للأزرقي .  
مروج الذهب للسعودي — خطط الكوفة لماسينيون .  
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام للفاسي بتعليق الخفاجي وعبد الله  
عبد الجبار وسواهما .  
قصة الأدب في الحجاز لعبد الله عبد الجبار والخفاجي .

البصرة وسوق المريد

( ١ )

لمربد<sup>(١)</sup> البصرة أثر غير قليل في اللغة والأدب والشعر في العصر الأموي، ولا بأس بالإطالة هنا في حديثه .

هو ضاحية من ضواحي البصرة ، في الجهة الغربية منها مما يلي البادية بينه وبين البصرة نحو ثلاثة أميال . كان سوقاً عامة ، قال الأصمعي : « المربد كل شيء حبست به الإبل والغنم . وبه سمي مربد البصرة<sup>(٢)</sup> ، وإنما كان موضع سوق الإبل وهو واقع على طريق من ورد البصرة من البادية ومن خرج

---

(١) هو علي وزن منبر ومقود من ربد بالمسكان إذا أقام فيه ، وفي الحديث أن موضع مسجد رسول الله كان مربداً لليتيمين في حجر معاذ بن عفراء فجعله المسلمين فبنوا له المسجد ، وفي شعر الفرزدق :

عشية سأل المربدان كلاهما عجاجة موت بالسيوف والصورم

ثناه مجازاً لما يتصل به من مجاوره ، وقد يجوز أن يكون سمي كل واحد من جانبيه مربداً ، وقال الجوهري : عني به سكة المربد بالبصرة ، والسكة التي تليها من ناحية بني تميم ، جعلهما المربدين ، كما يقال الأحوصان وهما الأحوص وعوف بن الأحوص . هذا نص تفسير البيت من اللسان ص ١٥١ ج ٤ ويلاحظ أن في العبارة خطأ مطبعياً في أول سطر من الصفحة المذكورة ، حيث وردت العبارة هكذا : سماه ، وصحتها : ثناه .

(٢) ١٥٠ و ١٥١ ج ٤ لسان العرب ، ومربد الإبل : محبسها ، وقال ابن الأعرابي وأبو عبيدة : المربد فضاء وراء البيوت يرتفق به ، ومربد التمر جرينه الذي يوضع فيه ( راجع ص ١٥١ ج ٤ لسان العرب ) وهو الأندر بلغة أهل الشام ، والبيدر بلغة أهل العراق ( ١٥١ ج ٤ لسان العرب ) وأهل المدينة يسمون الموضع الذي يحفف فيه التمر مربداً وهو المسطح والجرين في لغة أهل نجد ( ١٥١ ج ٤ لسان العرب ، ٢٢٦ ج ١ صحاح الجوهري ) وهو الجرن بلغة أهل مصر .

من البصرة إليها . ويظهر أنه نشأ سوقاً للإبل ، أنشأه العرب على طرف البادية يقضون فيه شؤونهم قبل أن يدخلوا الحضر أو يخرجوا منه<sup>(١)</sup> .

وفي اللسان - في مادة ب ص ر - وقال ابن شميل : البصرة أرض كأنها جبل من حص وهي التي بنيت بالمربد وإنما سميت البصرة بصرة بهاء، فكان المربد كان موجوداً في الجاهلية .

وأخبار المربد في الجاهلية معدومة مما يدل على قلة خطره إذ ذاك ، إنما كان له الخطر بعد أن فتح العرب العراق ، وسكنوه وخططوا البصرة ، فقد أنشئت فيه المساكن بعد أن كان مربداً للإبل فقط ، واتصلت العمارة بينه وبين البصرة حتى قالوا فيه : « العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة » . وقد كان المربد في الإسلام - كما يقول أحمد أمين - صورة معدلة لعكاظ الذي كان سوقاً للتجارة ، وكان سوقاً للدعوات السياسية ، وكان سوقاً للأدب - جاء في كتاب « ما يعول عليه » : المربد كل موضع حبست فيه الإبل . ومنه سمي مربد البصرة لاجتماع الناس وحبسهم النعم فيه - كان يجتمع العرب من الأقطار ، يتناشدون فيه الأشعار : ويبيعون ويشترون وهو « كسوق عكاظ » وقال العيني : « مربد البصرة . محلة عظيمة فيها ( أى في البصرة ) من جهة البرية ، كان يجتمع العرب فيها من الأقطار ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشترون .

كانت أهم أخبار المربد ما كان بعد قتل عثمان بن عفان من سير عائشة أم المؤمنين إلى البصرة ، فانها نزلت بفناء البصرة ورأت أن تبقى خارجها حتى ترسل إلى أهلها تدعوهم بدعوتها ، وهي المطالبة بدم عثمان وكان معها طلحة والزبير ثم سارت إلى المربد معهما وخرج إليهما من قبل دعوتها ، وخرج إلى المربد كذلك عامل على البصرة ، وهو عثمان بن حنيف ومن يؤيده ، وأصبح المربد وهو يموج بمن أتى الحجاز ومن خرج من البصرة ، حتى ضاق

---

(١) أحمد أمين - مجلة الثقافة المصرية .



المربد بمن فيه . وأصبح المربد مجالا للخطباء ممن يؤيد عائشة ومن معها ، ومن يؤيد عليا وعامله . وأصحاب عائشة في ميمنة المربد وأصحاب علي في ميسرته ، ويخطب في المربد طلحة ويمسح عثمان بن عفان ويعظم ما جنى عليه ويدعو إلى الطلب بدمه ، ويخطب الزبير كذلك وتخطب عائشة أم المؤمنين بصوتها الجمهوري ويؤيدهم من في ميمنة المربد ويقولون : صدقوا وبروا وقالوا الحق وأمروا بالحق ، ويؤثر قول عائشة في أهل الميسرة فينحاز بعضهم إليها ويبقى الآخرون على رأيهم وعلى رأسهم عثمان بن حنيف ، ويخطبون كذلك بينون خطأ هذه الدعوة وأن طلحة والزبير بايعا عليا فلا حق لهما في الخروج عليه ويؤيدهم أبو الأسود الدؤلي وأمثاله . وهكذا انتقل المربد إلى مجمع حافل كبير .

( ٢ )

وكان العصر الأموي أزهى عصور المربد ، ذلك لأن العرب كانوا قد هددوا من الفتح واستقرت الممالك في أيديهم . وأصبح العراق مقصد العرب يؤمه من أراد الغنى وخاصة البصرة جاء في الطبرى : « أن عمر بن الخطاب سأل أنس بن حجة وكان رسولا إلى عمر من العراق فقال له عمر : كيف رأيت المسلمين ؟ فقال انتالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة ، فرغب الناس في البصرة فأتوها » وكان المربد باب البصرة يمر به من أرادها من البادية ، ويمر به من خرج من البصرة إلى البادية ، ويقطنه قوم من العرب كرهوا معيشة المدن ويقصده سكان البصرة يستنشقون منه هواء البادية ، فكان ملتقى العرب ، وكانوا يحيون فيه حياة تشبه حياة الجاهلية : من مفاخرة بالأنساب وتعظيم بالكرم والشجاعة ، وذكر لما كان بين القبائل من إحن ، فالفرزدق يقف في المربد ينهب أمواله فعل كرماء الجاهلية ، حكى في النقائض أن « زياد بن أبي سفيان كان ينهى أن ينهب أحد مال نفسه ، وأن الفرزدق أنهب أمواله بالمربد ، وذلك أن أباه بعث معه إبلا ليبيعها فباعها وأخذ ثمنها فعقد عليه مطرف خنز كان عليه ، فقال قائل : لشد ما عقدت على دراهمك هذه ، أما والله لو كان غالب ما فعل هذا الفعل ، لخلها ثم أنهبها ، وقال : من

أخذ شيئاً فهو له وبلغ ذلك زياداً فبالغ في طلبه فهرب . فلم يزل في هربه يطوف في القبائل والبلاد حتى مات زياد .

وأراد عرب البصرة أن يكون لهم من مربد البصرة ما كان لهم في سوق عكاظ في الحجاز فبلغوا غايتهم ، وأحيوا العصية الجاهلية وساعد الخلفاء الأمويون أنفسهم على إحيائها لما كانوا يستفيدون منها سياسياً ، فرأينا ظل ذلك في الأدب والشعر ، ورأينا المربد في العصر الأموي يزخر بالشعراء يتهاجون ويتفاخرون ، ويعلى كل شاعر من شأن قبيلته ومذهبه السياسي ، ويضع من شأن غيره من الشعراء ومذاهبهم السياسية .

ومن أجل هذا خلف المربد أجل شعر أموي من هذا النوع ، فكثير من نقائض جرير والفرزدق والأخطل كانت أثراً من آثار المربد ، قلت فيه وصدرت عما كان بينهم من منافرة وخصومة ، يروى الأغاني أن جريراً والفرزدق اجتمعا في المربد فتنافرا وتهاجيا وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل .

كان كل من جرير والفرزدق يلبس لباساً خاصاً ويخرج إلى المربد ويقول قصائده في الفخر والهجاء ، والرواة يحملون إلى كل منهما ما قاله الآخر فيرد عليه . قال أبو عبيدة : « وقف جرير بالمربد وقد لبس درعا وسلاحاً تاماً ، وركب فرساً أعاره إياه أبو جهضم عباد بن حصين . فبلغ ذلك الفرزدق فلبس ثياب وشى وسواراً وقام في مقبرة بني حصن ينشد بجرير والناس يسعون فيما بينهما بأشعارهما ، فلما بلغ الفرزدق لباس جرير السلاح والدرع قال :

عجبت لرأى الضأن في حطمية<sup>(١)</sup> وفي الدرع عبد قد أصيبت مقاتله  
ولما بلغ جرير أن الفرزدق في ثياب وشى قال :

---

(١) هي الدرع منسوبة إلى حطمة بن محارب وهو رجل كان يصنع الدروع .

لبست سلاحى والفرزدق لعبة عليه وشاحا كرج<sup>(١)</sup> وجلاجله<sup>(٢)</sup>  
ومازالا كذلك يتهاجيان ويقولان القصائد الطويلة الكثيرة حتى ضج  
والى البصرة فهدم منازلهما بالمربد فقال جرير :  
فما فى كتاب الله تهديم دارنا تهديم ماخور خبيث مداخله  
وكان لكل شاعر من شعراء المربد حلقة ينشد فيها شعره وحوله الناس  
يسمعون منه ، جاء فى الأغاني : « وكان لراعى الإبل والفرزدق وجلماهما  
حلقة بأعلى المربد بالبصرة .

وكان الناس يخرجون كل يوم إلى المربد ، يعرف كل فريق مكانه  
فيجلس فيه ينتظر شاعره ، فقد روى الأغاني أيضا أن جريرا بات يشرب  
باطية من نبيذ ويهمهم بالشعر وهجاه الفرزدق والراعى فما زال كذلك حتى  
كان السحر وقد قالها ثمانين بيتا فى بنى نمير فلما ختمها بقوله :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

كبر ، ثم أصبح حتى عرف أن الناس قد جلسوا فى مجالسهم بالمربد ،  
وكان يعرف مجلسه ومجالس الفرزدق ، فلبس ولف رأسه ودعا غلامه  
فأسرج له حصانا وقصد مجلسهم وأنشدها فنكس الفرزدق وراعى الإبل .

ونرى بجانب هؤلاء الفحول أغنى جريرا والفرزدق والاختل طائفة  
أخرى من كبار الرجاز يقصدون المربد وينشدون رجزهم ، فالعجاج الراجز  
يخرج إلى المربد عليه جبة خز وعمامة خز ، على ناقة له قد أجاد رحلها ، ويقف  
بالمربد على الناس مجتمعين ، يقول رجزه المشهور :

---

(١) هو مايتخذ من الدى مثل المهر يلعب عليه وهو لفظ دخيل لا أصل  
له فى العربية .

(٢) ١٣٢ ج ٤ الاغانى

« قد جبر الدين الاله فخير »

ويهجو شاعر ربيعة فيأتي رجل من بكر بن وائل إلى أبي النجم ويستحثه  
على الرد عليه فيخرج أبو النجم إلى المربد ويقول رجزه :

« تذكر القلب وجهلا ماذكر »

ورؤبة الرجاز يئشد رجزه :

« وقاتم الأعماق خاوى المخترق »

ويجمع حوله فيان تميم فيرد عليه أبو النجم في رجزه :

« إذا اصطبحت أربعا عرفتني »

كذلك نرى ذا الرمة يقف بالمربد وعليه جماعة مجتمعة وهو قائم وعليه  
برد قيمته مائتا دينار ، وينشد ودموعه تجري على لحية :

« ما بال عينك منها المساء ينسكب »

وينشد كذلك بعض قصائده فيقف خياط فينقد شعره نقدا شديدا  
ويسخف بعض تشبيهاته ، فيمتنع ذو الرمة عن الذهاب إلى المربد حتى  
يموت الخياط .

والأمراء والولاة قد يتدخلون فيسكتون بعض الشعراء وقد يهيجون  
بعضهم على بعض خدمة لأغراض حزبية أو سياسية فعبد الملك بن مروان  
يأمر أبا النجم بالمفاخرة مع الفرزدق ؛ وعبد بن حصين يعين جريرا على  
الفرزدق ويعير جريرا الدرع والفرس والسلاح .

وهكذا كان المربد في العهد الأموي معبدا كبيرا أنتج أدبا غزيرا من  
جنس خاص . وكان هذا الشعر امتدادا للشعر الجاهلي ، لاتحاد الأسباب  
والبواعث ، فاما الشعر الغزلي كشعر ابن أبي ربيعة وأمثلة فليس له كبير  
أثر في المربد لأنه غير المهاجة والمفاخرة . وليس مجاله حياة المربد  
التي عرفناها .

وبقي المربد حتى دمره الزنج في ثورتهم التي بدأت عام ٢٥٥ هـ ... بقي المربد في العصر العباسي . ولسكنه كان يؤدي غرضاً آخر غير الذي كان يؤديه في العهد الأموي .

وما يروى عن الفرزدق في المربد ما حدث به الأصمعي قال : سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول :

لقيت الفرزدق في المربد ، فقلت : يا أبافراس ؛ أحدثت شيئاً ؟ فقال : خذ ثم أنشدني :

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع العيس  
فقلت : سبحان الله ، هذا للبتليس ، فقال : اكتمها فلضوال الشعر أحب  
إلى من ضوال الإبل .

ولا شك أن المربد كان له أثر فعال في الأدب الأموي ، هذا الأدب الذي تأثر بعوامل عديدة منها :

- ١ - انتقال الخلافة من المدينة إلى ملك عضوض عاصمته دمشق بالشام .
- ٢ - الصبغة العربية للدولة .
- ٣ - سياسة الدولة .
- ٤ - قيام العصبية والأحزاب وكثرة الخلاف بين المسلمين .
- ٥ - مجالس النقد والمناظرة ، والنوادي الأدبية العديدة التي قامت في هذا العصر ، ومنها الأسواق .
- ٦ - قيام الشعوية .
- ٧ - انتشار اللغة العربية في أنحاء العالم .
- ٨ - عناية الخلفاء والأمراء بالأدب .

كما كان لسوق المربد أثره الكبير في الشعر الأموي وفي بعث العناية به ، حتى لقد لقي الشعر الأموي عناية كبيرة : من الحكام خلفاء وأمراء وولاة ،

بل كانوا يرسلون وفودهم أحيانا إلى الشعراء التماسا لمدايحهم ، وقد أعقدوا على الشعراء العطاء ، وعقدوا له المجالس الخافضة لإنشاده وسماعه ، واتخذ كل خليفة أو وال لنفسه شاعرا واتخذ كل حزب له شعراء .

كما لقي الشعر عناية من المجتمع العربي الذي كان في ذلك الحين يحل الشعر منه منزلة رفيعة ، ولقى نفس العناية كذلك من المغنين ، كما لقي عناية فائقة من الشعراء الذين أقبلوا على تهذيبه وتجويده .

وترجع أسباب هذه العناية إلى العصبية القبلية والسياسية التي كانت عاملا في رواج الشعر والعناية به ، وإلى اهتمام الرواة بالشعر مما جعل سوقه رائجة ، ودعا الشعراء إلى تجويده ، وإلى التنافس بين الشعراء كذلك ، وإلى أثر الشعر في الحياة الاجتماعية ، واتخاذ الشعر أداة للغناء ، وإلى أن الحكماء جلهم عرب ومنهم الشعراء والنقاد .

ويسمى شعراء بني أمية بالإسلاميين ، وهؤلاء الشعراء الإسلاميون كانت عصبية الرواة عليهم ظاهرة ، فقد كانوا لا يعترفون لهم بجودة ولا إحسان ويعدون الشعر ما كان لامرئ القيس والتابغة وزهير الأعشى وأمثالهم من شعراء الجاهلية ، ويقول أبو عمرو ابن العلاء في جرير : « لقد أحسن هذا المولد حتى هممت بروايته » .

وقد ظهر أثر العوامل الجديدة في شعر هؤلاء الشعراء الإسلاميين واضحة . ومن أهم المؤثرات في شعرهم : القرآن الكريم والحديث النبوي ، ثم الشعر الجاهلي ، وامتزاج العرب بالعناصر والثقافات الأجنبية ، ثم الترف والحضارة .

وقد اختلفت نزعات هؤلاء الشعراء الإسلاميين اختلافا واضحا : فهناك نزعة جاهلية ، ونزعة حضرية رقيقة ، ونزعة خاصة بالشعراء الموالي من أمثال نصيب وعبد بن الحساس ، وينتميان إلى أصول حبشية ، والحيقطان وهو من أصل زنجي ، وأبي نخيلة وزباد الأعجم وموسى شهوات وإسماعيل بن يسار المتوفى عام ١١٠ هـ هم من أصول فارسية .

وقد اختلف الشعر اختلافاً واضحاً في أغراضه : فن أغراض قديمة تناولها الشعراء الأمويون متأثرين بما جد من مظاهر الحضارة وأحوال السياسة ، كالفخر والمدح والهجاء والثناء والوصف والاعتذار والغزل التقليدي والحماسة .

ومن أغراض جديدة نشأت في هذا العصر بتأثير الاتجاهات الجديدة السياسية والاجتماعية والدينية والعقلية والأدبية ، ومن بينها الشعر السياسي وشعر الشعورية والغزل العذري والغزل القصصي ووصف البلاد المفتوحة وشعر الزهد والعقائد .

ومهما كان فقد كان الشعر في عصر بني أمية في نهضة فنية شاملة تناولت بناءه ومعانيه وأخيلته وأساليبه وألفاظه بالتجديد والتطور .

وكل هذه التطورات الجديدة كان من بعض أسبابها قيام سوق المربد وكمناسة الكوفة بنشاطها الأدبي الكبير .

## العلاقات السياسية والثقافية

بين الخلافة الاسلامية والامبراطورية البيزنطية

في القرن التاسع الميلادي



( ١ )

شهد القرن التاسع الميلادى (٨٠٠-٩٠٠ م : ١١ من ذى الحجة ١٨٤ - ٦ من المحرم ٢٨٨ هـ) نهضة إسلامية جديدة ، رفعت لواءها الخلافة العباسية ، التي كان لها النفوذ الروحي والسياسى فى العالم الإسلامى .

وشاهدت بغداد عاصمة الخلافة فى هذا القرن عظمة عرش : الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ : ٨٧٦ - ٨٠٩ م) ، والمأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ : ٨١٣ - ٨٣٣ م) ، والمعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ : ٨٣٣ - ٨٤٢ م) ، والمتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ : ٨٤٧ - ٨٦١ م) ، والمعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ : ٨٩٢ - ٩٠٢ م) ، كما عاشت فى دولة الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ : ٨٠٩ - ٨١٣ م) ، والواثق (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ : ٨٤٢ - ٨٤٧ م) ، والمتنصر (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ : ٨٦١ - ٨٦٢ م) ، والمستعين (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ : ٨٦٢ - ٨٦٦ م) ، والمعز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ : ٨٦٦ - ٨٦٩ م) ، والمهتدى (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ : ٨٦٩ - ٨٧٠ م) ، والمعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ : ٨٧٠ - ٨٩٢ م) .

وفى هذا القرن كان يحكم الامبراطورية البيزنطية الأباطرة : نففور الأول (٨٠٢ - ٨١١) ، وميشيل الأول (٨١١ - ٨١٣ م) ، وليو الخامس (٨١٣ - ٨٢٠ م) ، وميشيل الثانى (٨٢٠ - ٨٢٩ م) ، وتيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢ م) ، وميشيل الثالث (٨٤٢ - ٨٦٧ م) ، وباسل الأول (٨٦٧ - ٨٨٦ م) وليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢ م) ، وكان هؤلاء الأباطرة يعدون أنفسهم حماة مجد الدولة الرومانية الكبرى ، والممثلين الحقيقيين لتراث المسيحية ، وإن نازعهم الامبراطور شرلمان فى غرب أوروبا هذا الشرف ، وخاصة بعد أن توج عام ٨٠٠ م امبراطورا على الامبراطورية الرومانية المقدسة .

( ٢ )

ويعد هذا العصر من أزهى عصور الإسلام ، وصفحاته المشرقة التى هى من

أنصع الصفحات في التاريخ السياسي والفكري والأدب للعرب والمسلمين ، وقد امتد نفوذ العباسيين فيه من شواطئ المحيط الأطلسي إلى حدود الهند والصين ، وارتفعت راياتهم في الآفاق تأوى إليها مواكب الحضارة والعلوم والآداب والفنون ، وتقوم المدارس ، وتنشأ الجامعات وتترجم الثقافات الأجنبية ، ويؤدى أعلام الفكر والثقافة رسالتهم من أجل خير الإنسانية ، وتعيش شتى العناصر والأجناس والألوان في ظلال الإسلام في محبة وسلام وإخاء .

هذا على الرغم من حكومات مستقلة في بعض الأقطار الإسلامية ، كال دولة الطولونية التي قامت في مصر عام ٢٥٤ هـ : ٨٦٨ م وسواها . ومن نفوذ العناصر الفارسية في نصفه الأول والعنصر التركي في نصفه الثاني .

ويمتاز هذا القرن بحرية الفكر ، وبنفوذ المعتزلة وسلطانهم فيه ، حتى مال المأمون إلى جانبهم ، وآمن بمبادئهم وأفكارهم الدينية ، فأصدر عام ٨٢٧ م منشورا يقرر فيه رسميا القول بخلق القرآن ، وظل النفوذ الفكري لهم في دولة الخلافة ، إلى أن تسلم المتوكل العرش فأصدر عام ٨٤٨ م قراراً اعتبر فيه القول بخلق القرآن خروجاً على الإسلام .

ويمتاز كذلك بازدهار النهضة العلمية والأدبية ، وبظهور كثير من نوابغ الفكر العربي ، وبتجمع الثقافات وتمثلها في الثقافة العربية ، وباتساع حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ، مما أثرى به الأدب العربي ثراء كبيراً ؛ وكانت الترجمة من الفهلوية والهندية واليونانية والسريانية مستمرة ، وأخذ تراث الثقافة الهيلينية يؤثر في تفكير فلاسفة الإسلام ، كما كان يؤثر في التفكير البيزنطي أيضاً . والتقى المسلمون بهذه الثقافة في الولايات البيزنطية والفارسية وفي البلاد التي كانت خاضعة للرومان كمصر والشام ، وكان من أهم مراكز هذه الثقافة الاسكندرية وغزة وقصرية وأنطاكية وحران ، وكان الآراميون يحتفظون بكثير من أصول هذا التراث ، ومن ثم كانوا حلقة اتصال بين الثقافة الإسلامية واليونانية .

وكان الامبراطور تيوفيل أعظم شخصية بين نطية وكانت القسطنطينية في عهده تنافس بغداد في الأبهة وفي حلبة الثقافة ، وكانت مدارسها وجامعاتها قبلة أنظار العلماء .

كما أثرت الحضارة العربية الشرقية الإسلامية في الامبراطورية البيزنطية أيضا ، فكان البلاط البيزنطي يحاكي بلاط بغداد في الترف والبهاء الشرقي الأصيل ، وكان عصر الأسرة المتعدنية عصر بحث حقيقي لهذه الامبراطورية ، وفي عصر الأسرة العمورية التي تبدأ من عام ٨٢٠ م زاد نصيب بزنطة من الحضارة والقوة ، وكان للبطريرك فوتيوس أثر في نحو النهضة الثقافية البيزنطية ، وأحيا برادس أعظم رجال الدولة والمتصرف الحقيقي في شئونها جامعة القسطنطينية القديمة ، وعين لها أساتذة في الهندسة والفلك وفقه اللغة .

### ( ٣ )

وقد كان التبادل الاقتصادي مستمرا بين الدولتين ، فكانت الطرق التجارية بين بغداد وآسيا الصغرى مفتوحة ، وكانت صادرات بغداد وبلاد الخلافة في آسيا الوسطى التي تمر قوافلها ببغداد تصلان إلى القسطنطينية رأسا .

### ( ٤ )

وقد تبودلت السفارات بين الدولتين خلال القرن التاسع ، وكان موضوع هذه السفارات دائما هو إجراء مفاوضات حول صلح أو هدنة أو فداء الأسرى ، وكانت هذه السفارات الإسلامية أو البيزنطية تخرج عادة على رأس قوافل محملة بالهدايا الثمينة والمجوهرات ثولى البلاد وبعض كبار رجال دولته ، وإذا وصل السفير ببغداد أو القسطنطينية لقن آداب البروتوكول وحدد له موعد للتشرف بالمقابلة ، ويوضع له برنامج خاص لزيارة العاصمة والوقوف على مظاهر العظمة والأبهة في الدولة ، وربما أقيم له عرض عسكري قد يصل

من الفخامة إلى حد كبير ، وقد تكرر ذلك كثيراً في هذا القرن :

ففي عام ٢٣١ هـ : ٨٤٥ م في عهد الواصل وصل إلى بغداد سفير موفد من قبل إمبراطور بينظرة للمفاوضة في فداء الأسرى . وبعد مفاوضات طويلة ، في بغداد بعث الخليفة سفيره أحمد بن أبي قحطبة إلى البلاط البيزنطي ووكّل إليه إتمام الاتفاق على الفداء واستقبل السفيران في بغداد والقسطنطينية استقبالا رائعا ، وكلت سفارتهما بالتوفيق .

وفي عام ٢٤١ : ٨٥٦ هـ بعث المتوكل سفيره نصر بن الأزر بن فرج إلى القسطنطينية للمفاوضة حول فداء الأسرى ، ونجحت هذه المفاوضات وتم الفداء فعلا يوم الأحد ١٢ شوال ٢٤١ هـ - ٢٣ فبراير ١٨٥٦ .

وفي عام ٢٤٦ هـ : ٨٦٠ م بعث المتوكل أيضا سفيره نصر بن الأزر بن فرج إلى القسطنطينية إجابة لطلب الإمبراطور ميشيل الثالث للمفاوضة حول فداء الأسرى ، وحين وصل السفير إلى البلاط كان ممتنظقا سيفاً وخنجرا ومتشجعا بالملابس السوداء ، وعلى رأسه القلنسوة اللباس الرسمي للعباسيين ، فأبى عم الإمبراطور وهو وزيره بروناس أن يسمح للسفير بالدخول إلى قاعة الاستقبال على هذه الهيئة واعترض السفير وهم بالعودة فلاطفه رجال البلاط الإمبراطوري وأذنوا له بالمقابلة ، فدخل على الإمبراطور ، وقدم له الهداية التي بعث الخليفة بها معه ، وحضر المقابلة ثلاثة مترجمين حذرهم السفير من أن يزيدوا على ما يقول شيئا ، ولما تمت المفاوضات واتفق الطرفان على قواعد تبادل الأسرى أقسم كل منهما على الوفاء بعهده وأقسم ( بروناس ) نيابة عن الإمبراطور ويأذن منه .

وقد أحسن الإمبراطور معاملة السفير ، وأفرد له منزلا غير بعيد من قصره ، وظل السفير أكثر من أربعة أشهر في العاصمة ، وتم الفداء فعلا على أكثر من ألفي مسلم فيهم عشرون امرأة وعشرة أطفال لدى الروم وأكثر من ألف أسير من الروم عند العرب ، والآلاف الأخرى جعلت فدية

لأحد بطارقة الإمبراطور وكان قد وقع في أسر المسلمين في حصن إؤلوة وجعلت فديته ألف أسير مسلم .

ولم تقتصر السفارات السياسية في هذا القرن على ذلك فحسب بل كانت السفارات من بغداد وعواصم كثير من الدول مستمرة ، ومن ذلك مثلاً أن شارلمان إمبراطور الدولة الرومانية في غرب أوربا بعث من أيكس لاسايل عاصمة مملكة سفييرا له اسمه اسحاق إلى بلاط الخليفة الرشيد في بغداد ، فأكرم الرشيد وفادة السفير ورحب بصدقة شارلمان ، وأوفد إليه سفراءه بهدايا نفيسة : خيمة عربية وساعة مائة وأثواب حريرية وتخت من الذهب ، وفيل ، وبمفاتيح قبر المسيح في بيت المقدس الذي يتولى حمايته ، وتبادل الرشيد وشارلمان السفراء والهدايا فيما بين عامي ٧٩٧ و ٨٠٦ م ، ويقال إن الرشيد منح شارلمان حرس رعاية المسيحيين في الإمبراطورية الإسلامية ، وصحب هذه السفارات عقد محالفة بين الرشيد وشارلمان ، كان لها أغراض بعيدة هي رغبة شارلمان القضاء على الإمبراطورية البيزنطية بأيدي الرشيد ، ورغبة الرشيد القضاء على الخلافة الأموية بالأندلس بأيدي شارلمان .

### ( ٥ )

أما الصلات الثقافية ، فقد ظلت متبادلة طول هذا القرن ، وكانت عاملاً من عوامل التفاهم الفكري والسياسي بين المسلمين والبيزنطيين .

ففي عهد الرشيد استولى المسلمون على كثير من المخطوطات اليونانية النفيسة إبان إغاراتهم على الدولة البيزنطية ومدنها مثل أنقرة ودمورية ، ووصلت هذه الكنوز إلى بغداد ، وترجمت إلى العربية ، وقام بهذه الترجمة كثيرون من مهرة الترجمة من بينهم يحيى بن ماسويه ، ومن ذلك نعرف أن إغارات الرشيد على آسيا الصغرى لم تكن تهدف إلى النهب والغنائم ، وإنما كان يقصد من وراءها كذلك الاستيلاء على كنوز البيزنطيين .

وبعث المأمون إلى الامبراطور ليو الخامس يطلب منه السماح للسفارات الإسلامية بالحصول على الكتب اليونانية القديمة في الفلسفة والهندسة والطب ، وكان المأمون قد أوفد جماعة من أشهر علماء عصره في بعثه علمية إلى بزنطة للحصول على هذه المخطوطات ، وكان فيهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، وصاحب بيت الحكمة ، واختارت هذه البعثة الكثير من نفائس المخطوطات وعادت بها إلى بغداد ، وهناك كان قسطا بن لوفا يشرف على ترجمة هذه الكنوز الإغريقية الثمينة ، وكان غرض المأمون استخلاص أبداع ما في الفكر الإغريقي من فلسفات وثقافات ومزجه بالثقافة العربية الإسلامية ، وأسس المأمون في بغداد عام ٨٢٥ هـ ، بيت الحكمة للإشراف على حركة ترجمة الكتب اليونانية ، وكان يضم مكتبة وجمعاً علمياً للترجمة ، وكان هذا خطوة جليلة لتغذية العلوم الإسلامية بشيء من معارف اليونان .

وكان المأمون عالماً متضلعا واسع الثقافة كثير الاطلاع ، وقد أولى ترجمة الثقافات الأجنبية إلى العربية عناية خاصة ، إذ كان يناصر الاعتزال ويحاول تأييد هذه النزعة في منطق اليونان ، وكان ينفق بسخاء على حركة الترجمة حتى أعطى وزن ما يترجم ذهباً ، وكان يحرض الناس على قراءة هذه التراجم ويرغبهم في نقلها .

كما كان يخلو إلى الحكماء ويأنس بمحاضراتهم ، وقد اتخذ بطانة له من علماء اليونان والسرمان والفرس والهنود وأمر ولاته أن يعثوا له بالكتب التي تقع في أيديهم وجعل من شروط الصلح بينه وبين الإمبراطورية أن يرسل إليه مجموعه من الكتب النادرة ، وكان من علماء بزنطة المشهورين من الرياضيات في عصر المأمون ليو المهندس الفلكي الذي ذاع صيته في بغداد عن طريق تلاميذه ، فأرسل المأمون إليه يستدعيه إلى بلاطه وأغراه بإجزال العطاء له ، ولكن تيوفيل لم يأذن له بالسفر ، ومنحه وظيفة معلم في إحدى الكنائس في القسطنطينية

وقرر له رأتبا شهريا ، ولكن حرص المأمون على الإفادة من هذا العالم البينظى جعله يبعث برسالة شخصية إلى الإمبراطور تيوفيل يطلب فيها السماح بإيفاد ليو إلى بغداد في رحلة قصيرة ، وذكر في رسالته أنه يعد قبول الإمبراطور لهذا الطلب عملا وديا ، وأنه يعرض لذلك ألف قطعة من الذهب وعقد صلح دائم غير أن تيوفيل رفض طلب المأمون .

وقد أرسل الخليفة الواثق العالم العربى المشهور محمد بن موسى يأذن من الإمبراطور ميشيل الثالث إلى أفسوس لزيارة الكهف الذى حفظت فيه رفات أهل الكهف السبعة الذين استشهدوا فى اضطهادات ديسوس وورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، وأرسل الإمبراطور الرومى دليلا ليصاحب العالم العربى ، فى هذه الرحلة العلمية وقد دخل محمد الكهف ورأى الرفات وأرسل الواثق أيضا حملة كبيرة رأسها المترجم سلام ، الذى كان يعرف ثلاثين لغة ، إلى آسيا الصغرى ، ليكتشف السور الذى بناه الاسكندر سدا بين يأجوج ومأجوج كما ورد فى القرآن الكريم ، ودامت الحملة ٢٨ شهرا ولما عاد أعضاء البعثة كأفهم الخليفة ، وقدم له سلام تقريراً وافيا عن الحملة . ولم تقطع العلاقات الثقافية بين بغداد وبين نطة طول هذا القرن .

وقد أسهم الوزراء والأمراء ورجالات الخلافة الإسلامية فى هذا القرن فى تشجيع حركة ترجمة الثقافة الإغريقية إلى العربية ، ومن أبلى فى ذلك بلاء حسنا أمراء البيت العباسى وأسرة البرامكة ، ووزراء الخلافة ، وموسى بن شاكر وأبناؤه محمد وأحمد والحسن الذين احتضنوا حنين بن إسحاق العبادى شيخ المترجمين ( ١٦٤ - ٢٦٤ هـ ) وابنه إسحاق المتوفى عام ٢٩٨ هـ ، وأوفدوا حينئذ على نفقتهم إلى آسيا الصغرى ليجيد اللغة اليونانية وليحصل على نفائس من المخطوطات القديمة وكانوا يحزلون العطاء لحنين وربما بلغ مرتبه خمسة آلاف دينار فى الشهر أو ما يعادل ٢٥٠٠ جنيها مصريا .

( ٦ )

وقد ألف مسلم بن أبى مسلم الجرمى وهو أحد الأسرى المسلمين الذين أطلق سراحهم فى فداء ٢٣١ هـ : ٨٤٥ م كتبنا عن أباطرة بيزنطة وكبار رجالها ، وعن أقاليم الإمبراطورية ومسكالكها ، ومناخها ؛ وما يجاورها من الدول .

ومن الرحالة المسلمين الذين وصفوا القسطنطينية هارون بن يحيى أحد الأسرى الذين نقلوا إلى القسطنطينية فى عهد الإمبراطور ياسل الأول ، وقد وصف هارون الطريق البحرى الذى حمل فيه إلى القسطنطينية ، كما وصف هذه العاصمة ومشاهداته فيها والقصر الإمبراطورى وموكب الامبراطور إلى الكنيسة وأديرة القسطنطينية وسوى ذلك من مذكراته ومشاهدته الثمينة .

( ٧ )

وكانت الأسرى البيزنطيون فى بغداد وأسرى المسلمين فى القسطنطينية ، وهم كثيرا ما يبلغون عشرات الألوف ، عاملا من عوامل التقارب الفسكرى والسياسى والاجتماعى بين الدولتين ، وكانت حوادث الحدود لا تنتهى بينهما ، وكثيراً ما توغلت جيوش الخلافة فى آسيا الصغرى وكثيرا ما أغارت جيوش الامبراطورية على مدن الشام والجزيرة ، وكانت هذه الحوادث سببا آخر من أسباب زيادة التبادل الفسكرى ، إذ كان المنسكرون والمنهمون يتبادلون الأفكار الجديدة والعادات والأخلاق واللغات والآداب ، وبهذه العقلية الجديدة كان يفد السفراء على بلاط امبراطور بيزنطة ، وبهذا كانت تكتب رسائل الخلفاء التى يحملها السفراء ، وبها كتب ( نيقولا ميستيكوس ) بطريق القسطنطينية فى رسالة إلى حاكم جزيرة كريت المسلم يعبر عن إيمانه بالسلام بين الدولتين : « إن أعظم قوى العالم أجمع قوة العرب وقوة الروم تلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء ، ولهذا وحده يجب أن نعيش إخوة على الرغم من اختلافنا فى الطوائع والعادات والدين » .



( ٨ )

ومن الأحداث التي كانت تقع على حدود الدولتين بين الحين والحين غزوة الرشيد في صيف عام ٨٠٦ م — ١٩٠ هـ للمماليك الامبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى ، فقد قاد الرشيد بنفسه جيشا يبلغ عدده ١٣٥ ألف جندي عدا المتطوعين واستولى على عدة معاقل قوية منها هرقله وطوانة شمال قلعة اللؤلؤة واضطر الامبراطور نقفور إلى طلب الصلح ودفع ٥٠ ألف دينار مقابل تخلي الرشيد عما بيده من الأراضي البيزنطية ويوضح لنا هذا أن الخلافة العباسية لم تكن قد رسمت لنفسها سياسة هدفها تقويض دعائم الدولة البيزنطية . ثم كانت الثورة التي أعلنها توماس الصقلي على الامبراطور ميشيل الثاني في آسيا الصغرى ، وشد المأمون أزر هذا الثائر ضد الامبراطورية فعقد حلفا معه تعهد فيه بأن يمدّه بجيش قوى لمهاجمة القسطنطينية ثم اتخذ هذا الحلف صبغة شرعية عندما توج بطريق انطاكية التابع للخلافة الإسلامية توماس امبراطورا . ولكن ثورة توماس فشلت وهزمت جيوشه عام ٨٢٢ م وقبض على توماس في منتصف أكتوبر ٨٢٣ وحكم عليه بالإعدام . ولكن المأمون لم يسكت فغزا بجيشه في ٣٠ يوليو ٨٣٠ مدنا في آسيا الصغرى ، واستولى على قره وماجدة وحصن سندس ، وكان سبب ذلك اعتمادات الامبراطورية على الحدود ، وفي عام ٢١٦ هـ دخل المأمون أيضا هرقله ومدنا أخرى في آسيا الصغرى وفي عام ٢١٧ هـ حاصر حصن لؤلؤة . وقد مات المأمون عام ٢١٨ هـ وهو يغزو داخل الحدود البيزنطية .

ولم تسكت بزنطة على تأييد بغداد لثورة توماس فقد أبدت هي كذلك ثورة بابل التي اشتعلت نارها بعنف في أذربيجان وأرمينيا وأعد الامبراطور البيزنطي تيوفيل جيشا من مائة ألف هاجم به حصن زبطرة قرب الحدود عام ٢٢٣ هـ ٨٣٧ م وفي هذه السنة تمكن المعتصم من القضاء على هذه الثورة ، ثم أعد ثلاثة جيوش قاد بنفسه إحداها وهاجم بها الامبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى واستولى على أنقرة وعمورية مهد الأسرة العمورية الحاكمة وقد دمر هذه المدينة عام ٢٢٣ هـ : ٨٣٨ أخذنا بثأر زبطرة .

ولجأ تيوفيل إلى عبد الرحمن الثاني ملك الأندلس (٨٢٢ - ٨٥٢ م) يستعين به ليهاجم الخلافة العباسية في المغرب العربي فأرسل سفارة وصلت قرطبة في نوفمبر ٨٣٩ م : ٢٣٥ هـ لعقد محالفة بين الملكين ، ومنى تيوفيل ملك الأندلس بملك أجساداه في المشرق فرد عبد الرحمن ردا حسنا وبعث إلى الامبراطور بهدايا ثمينة مع سفيره يحيى الغزال .

وفي عام ٨٦٣ م تمكن الامبراطور ميشيل الثالث من الأخذ بثأر عمورية بإبادته جيش ملطية العظيم الذي كان يقوده عمر الاقطع وقد تركت هزيمة هذا الجيش العربي أثرها الدامى في الملاحم العربية وبقى هذا الأثر إلى أيامنا في الرواية العربية التركية المسماة السيد المسلم البطال وفي إحدى قصص ألف ليلة وليلة ، وقد استشهد البطال عام ٧٤٠ م : ٩٩ في معركة أكرونيون بآسيا الصغرى في حصار القسطنطينية وكتبت قصة بطولته بعد ذلك بكثير وترددت في القصة صور من الأعمال الحربية بين الدولتين في القرن التاسع وكان صدى الأحداث العسكرية بين الدولتين كثيرا ما يتردد في الأغاني الشعبية التي تدور حول أحداث الحدود وفي شعر شعراء العرب في القرن التاسع كقصيدة أبي تمام المشهورة في فتح عمورية ومطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حدة الحد بين الجد واللعب  
المراجع :

العرب والروم - فازلييف - دار الفكر .  
الامبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية - دكتور إبراهيم العدوى .  
الطبرى .  
ابن الأثير .

الأدب العربي في ظلال الأمويين والعباسيين .  
الحياة الأدبية في العصر العباسي - للمؤلف .  
محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية للحضري بك .  
الفتوحات الإسلامية لدحلان .  
مواكب الحرية في مصر الإسلامية - للمؤلف .  
الوطن الإسلامى - مخطوط - للمؤلف .

أبو تمام وعبقريته  
في اختياراته في كتاب الحماسة

( ١ )

حماسة أبي تمام من أشهر مصادر الشعر العربي ، وأهم مجموعة من المختارات ، تمثل الشعر الجاهلي والإسلامي ، وهي الغذاء الأدبي لسلك باحث أو دارس . وقد اهتم بها النقاد اهتماما كبيرا ، وهي تمثل الشعر العربي القديم تمثيلا واضحا لا خفاء فيه .

وقد جمع هذه المختارات الشاعر العربي الكبير الخالد أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ( ١٩٠ -- ٢٣١ هـ ) ، وهو من أشهر شعراء العربية في القرن الثالث الهجري .

وهذه المختارات قسمها أبو تمام إلى أبواب ، وجعل باب الحماسة هو الباب الأول منها ، ولذلك سميت باسم الحماسة ، وهو الباب الذي صدرت به المختارات .

وكان أبو تمام يسميها « الاختيارات من شعر الشعراء » ، ورتب الكتاب على أبواب عشرة : الحماسة . والمراثي والأدب . والتشبيب ، والهجاء . والاضافات ، والصفات . والسير . والملح ومزمة النساء . واشتهر بالباب الأول تغلبا ، لأن الحماسة شجاعة العرب وهي الأولى من صفاتهم . ولوقوعه الوقع الحسن لدى عامة أهل الأدب صار علما له ، فيقال أبو تمام صاحب الحماسة . وصار لمجموعه هذا من الرواج ما ضاعف شهرته حتى قيل إنه في اختياره للشعر شاعر . وقد تأثر الأدباء بحماسة أبي تمام والفواكتبا على نمطها باسم الحماسة ، ومنها :

١ — الحماسة : لأبي عبادة الوليد بن عبيد الجحترى وهي مطبوعة في بيروت .

٢ — الحماسة : للعسكري : أبي هلال العسكري .

٣ — الحماسة : للأعلم الشنتمرى المتوفى سنة ٤٧٦ هـ .

٤ — الحماسة : للخالدين وهما أبو عثمان سعيد وأبو بكر محمد ابنا هاشم من شعراء سيف الدولة الحمداني صاحب حلب ، وتعرف حماستهما بالاشباه والنظائر ، ومنها نسخة بدار الكتب المصرية .

- ٥ - الحماسة : لأبي السعادات هبة الله بن علي الشجري العلوي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ وتعرف بالمختارات وهي مطبوعة .
- ٦ - الحماسة : لعلي بن حسن المعروف بشميم الحلي المتوفى سنة ٦٠١ هـ
- ٧ - الحماسة : لأبي الحجاج يوسف بن محمد الاندلسي البياسي المتوفى سنة ٦٥٢ هـ ، وهي كبيرة في مجلدين منها قطعة بمكتبة غوته بالمانيا .
- ٨ - الحماسة : البصرية لصدر الدين علي بن أبي الفرج المقتول سنة ٦٥٩ هـ ، وهي تضاهي حماسة أبي تمام ، ومنها نسخة بدار السكتب المصرية .

## ( ٢ )

وقد ولد أبو تمام سنة ١٩٠ هـ بحاسم قرية من قرى دمشق ، وانتقل إلى مصر ونشأ بها فكان يحمل الجرة ويسقي الماء يجمع عمرو . ولازم المسجد ومال من صغره إلى العلم والأدب ، فكان يحضر مجالس العلماء ، ويفشى أندية الأدباء ، وروى الكثير الجيد من شعر غيره ، واستظهر الآلاف من القصائد والمقطوعات والأراجيز ، ولسعة محفوظه كان ينشد أربعة آلاف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقطوعات مع جودة ما يحفظ من ذلك ويختار ، حتى قالوا إنه في اختياره : شاعر . ومن تأليفه : « الحماسة » وله مجموع آخر سماه « فحول الشعراء » جمع فيه طائفة كبيرة من شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، وكتاب « الاختيارات من شعر الشعراء » .

عنى أبو تمام بجمع المختارات من أشعار العرب في الجاهلية والإسلام ودونها في كتاب الحماسة وغيره ، فكانت هذه العوامل وما أضيف إليها من جودة الطبع وسلامة الذوق وصفاء العقل مما جعل أبا تمام يتوفر على قول الشعر ويجيد في كل فنونه . وقد تهيأت له من صغره أسبابه ، وكلت عنده أدواته ، وكان من أبصر الناس بما يحتاج إليه الشاعر فنسخ فيه وسار ذكره ، حتى قيل ليس في المولدين أشهر اسماً بعد الحسن أبي نواس من حبيب

والبحترى ويقال : إنهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد ، وكان  
دعبل على تقدمه في السن والشهرة لا يصيب مع أبي تمام شيئا .  
ولأبي تمام وصية مشهورة لتلميذه أبي عبادة البحتري ، تدل على ذوقه  
في الأدب والنقد وجاء فيها :

« تخير الأوقات وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، واعلم أن العادة  
في الاوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه في وقت السحر ،  
وذلك أن النفس قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ، فإن  
أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر فيه من بيان  
الصباية ، وتوجع الكتابة وقلق الاشواق ، ولوعة الفراق ، وإذا أخذت في  
مدح سيدى ذى أباد فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرف  
مقامه ، وتقاض المعانى واحذر المجهول منها ، وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ  
المزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجسام ، وإذا عارضك  
الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا و أنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك  
لقول الشعر الذريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين . وجملة الحال ان  
تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما  
تركوه فاجتنبه ، ترشد ان شاء الله تعالى . »

### ( ٣ )

وأبو تمام هو حبيب بن أوس الطائي ، أسبق ثلاثة الشعراء الذين سارت  
بذكرهم الركبان ، وخلد شعرهم الزمان ، ثانيهم البحتري ، وثالثهم المتنبى .  
والمشهور في نسبه أنه عربي طائي ، والمرجح في مولده أنه ولد سنة  
١٩٠ هـ بقرية جاسم من كورة جيدور شمالى حوران من أعمال دمشق وعلى  
بعد ثمانية أميال منها من أبوين فقيرين ، ونقل صغيرا إلى مصر فلبث بها  
مدة يشغل بمهن حقيرة . ثم كان يسقى الماء بالجرة في جامع عمرو بالفسطاط .

والظاهر أن طول مقامه بالمسجد بين أئمة اللغة والفقه والحديث حجب إليه العلم والأدب . فتعلم العربية وحفظ مالا يحصى من شعر العرب ، قيل إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير المقطعات والقصائد .

ولما أئبعت ثمار أدبه واستحصف شعره عرف أن مصر لا تنهض بإذاعة فضله وتحقيق أمله ، فعاد إلى الشام ، ولبت فيها مدة يمدح رؤساءها وولاية الدولة ، فذاع شعره بالجزيرة والعراق ، ودعاه رؤساء الدولة أن يقدم إلى العراق ، فقدمها ومدحهم ، واتصل بالخليفة المعتصم فمدحه ، وحظى عنده . وعند وزيره محمد بن عبد الملك الزيات وعند الحسن بن وهب أحد رؤساء الكتاب ومحمد بن حميد الطوسي الطائي أحد قواد العرب في جيش المعتصم .

ثم كان يرحل إلى كبار عمال الدولة بممالكهم كعبد الله بن طاهر بخراسان وأبي دلف العجلي ببلاد السكج وأرمينية ، ومدحهم بالقصائد الخالدة وقربوه منهم إلى حد الصداقة والإخاء ، ورغبوا به عن التكسب بالشعر . فولاه الحسن ابن وهب صاحب ديوان الرسائل في زمن المعتصم ولاية بريد الموصل فأقام بها أقل من سنتين وتوفي سنة ٢٣١ هـ ودفن بها ورثاه الوزراء ورؤساء الدواوين كابن الزيات والحسن بن وهب وغيرهم<sup>(١)</sup> .

وكان أبو تمام أسمر اللون طويلاً فصيح الكلام فيه متممة يسيرة ، وكان حاضر الذهن سريع الجواب ، قلما عرف من أهل زمانه مثله في حدة الخاطر ولطافة الحس . حكى أنه لما مدح الأمير أحمد بن المعتصم بقصيدته السبئية وانتهى فيها إلى قوله في المدح :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس

---

(١) وقع سهواً من النساخ وفي نسخة الاغانى المطبوعة بمصر أن جاسم أحد قرى منبج وهو خلط بين نسب البحترى الطائي وأبي تمام الطائي ، لأن الذي ولد بقرية من قرى منبج هو البحترى لأبو تمام والقرية التي ولد بها البحترى تسمى حردفنة وبينها وبين جاسم مسافة كبيرة .

قال له فيلسوف العرب أبو يوسف يعقوب الكندي ، وكان حاضرا :  
الأمير فوق ما وصفت . فأطرق مليا وقال :

لاتنكروا ضربى له من دونه      مثلا شرودا فى الندى والباس  
فاته . قد ضرب الأقل لنوره      مثلا من المشكاة والنبراس

ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها هذين البيتين فعجبوا من سرعة  
خاطره وحدة فطنته .

كان أبو تمام حاضر الجواب قوى البديهة . . . ومن نوادره فى ذلك  
أنه لما قصد الأمير عبد الله بن طاهر صاحب خراسان ، وامتدحه بالقصيدة  
التى أولها : «هن عوادى يوسف وصواحيبه » أنكر عليه أبو العميش أحد  
شعراء عبد الله بن طاهر وخلصائه ، وقال له « لم لاتقول مايفهم ؟ » فقال له  
على البديهة « لم لاتفهم مايقال ؟ » فاستحسن منه هذا الجواب السريع .

وأبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدثين انتهت إليه معانى المتقدمين  
والمتأخرين وظهر والدنيا قد ملئت بترجمة علوم الأوائل وحكمتها من اليونان  
والفرس والهند فحصف عقله ولطف ذهنه بالإطلاع عليها واستخرج من جملة  
ذلك طريقته التى آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فكان أول من أكثر  
الحكم والأمثال والاستدلال بالأدلة العقلية والكسنايات الخفية ولو أفضى  
ذلك إلى التعقيد أحيانا .

ولما رأى أن قد فاتته سلامة اللفظ وحسن ديباجته أراد أن يجبر الكسر  
بانتحاء طريقة بشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد فى الجنس والمطابقة والاستعارة  
من أنواع البديع ، فسلم له بعضها ، وأتى من الجنس بما عرف به شعره ، وصار  
من خصائص شاعريته ومع هذا سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها شاعر  
سابق ، وعجز عن محاتها كل لاحق ، لما حوته من عيون المعانى المبتكرة ،  
و صيغت فيه من الألفاظ الرائقة ، وضمنه من الأمثال والحكم التى زادت فى



ثروة الأدب العربي ، ومهدت لمن خلفه طرقاً لم تسكن لولاه معبدة ، ومنها سلك أبو الطيب المتنبي وأبو العلاء المعري وغيرهما إلى حكمهم .

ولغلبة الحكمة عليه قيل إن أبا تمام والمتنبي حكيان والشاعر البحتري ، ولم يرزق أحد السعادة في شعره ، وتناول الناس له نقداً أو شرحاً واستشهاداً به ، مثل أبي تمام والبحتري والمتنبي ، وقد نال أبو تمام هذه الشهرة الذائعة وأثر عنه هذا الشعر الكثير ولم تزدسه على الأربعين بكثير ، فكيف به لو عمر ١٢٠ . وأجاد أبو تمام القول في كل فن من فنون الشعر . أما مرثيته فلم يعلق بها أحد جاش صدره بشعر . وأشهرها القصيدة المشهورة التي رثى بها محمد بن حميد الطوسي الطائي ومنها هذه الأبيات :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر	فليس لعين لم يفيض ماؤها عذر
توفيت الآمال بعد محمد	وأصبح في شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله	وذخر لمن أمسى وليس له ذخـر
وما كان يدرى مجتدى جود كفه	إذا ما استهلكت أنه خلق العسر
ألا في سبيل الله من عطلت له	فجـاج سبيل الله وانتثر الثغر
ففي كلبا فاضت عيون قبيلة	دماضحكت عنه الأحاديث والذكر
ففي دهره شطران فيما ينوبه	ففي بأسه شطر وفي جوده شطر
ففي مات بين الطعن والضرب ميتة	تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه	من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلاً فرده	إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار إحتى كأنما	هو الكفر يوم الروع أودونه الكفر
فأثبت في مستنقع الموت رجله	وقال لها : من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد نسج ردائه	فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر

ومنها :

ففى كان عذب الروح لامن غضاضة      ولكن كبرا أن يقال به كبر  
ففى سلبته الخيل وهو حمى لها      وبزته نار الحرب وهو لها جمر  
وله من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجاء :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى      فالسيل حرب للسكان العالى  
وتنظرى خبب الركاب ينصها      محي القريض إلى يميت المسال  
ومن أخم قصائده قصيدته البائية التى هناها الخليفة المعتصم بفتح عمورية  
ويستخر فيها بالمنجمين وأوطها :

السيف أصدق انباء من الكتب      فى حده الحد بين الجد واللعب  
بيض الصفائح لاسود الصفائف فى      متونهن جلاء الشك والريب  
ومن قوله فى الحجاب :

يا أيها الملك النأى بغزته      وجوده لمرجى جوده كشب  
لبس الحجاب بمقص عنك لى أملا      إن السماء ترجى حين تحتجب  
ومن أبياته السائرة قوله :

فلو صورت نفسك لم تزدها      على ما فيك من كرم الطباع

( ٤ )

ولقد كان أبو تمام والبحرئى وابن الرومى وابن المعتز من أبرز شعراء  
القرن الثالث وأبو تمام رائدهم وإمامهم وزعيم المحدثين فى التجديد الشعري فى  
القرن الثالث الهجرى .

كان أبو تمام وابن الرومى يتعمقان فى الثقافة وينزعان إلى التفكير  
ويؤثران المعانى العميقة والآراء البعيدة فى الشعر ، وكان أبو تمام مع ذلك  
يتخذ الشعر صناعة فنية دقيقة فهو يختار ألفاظه وأسلوبه اختيارا دقيقا ،

ويصوغه صياغة خاصة مصبغة بألوان الترف والزخرف وأصباغ البديع المتعددة التي عرفها شعراء القرن الثالث بذوقهم وعقلهم ، من حيث كان ابن الرومي قانعاً بالغوص على المعاني دون التفات أو إيثار لألوان الجمال في الأسلوب ، أما أبو عبادة البحتري فقد كان قريباً في أفساره واضحا في أسلوبه يحب الصنعة ولكنّه يؤثر منها ما كان موائماً للفطرة العربية السليمة وللذوق الأدبي الخالص الذي لم تفسده آثار الحضارة وألوان الثقافة ومذاهب الصنعة في الشعر . وكان شعره صورة لهذا الاتجاه دون ماسواه ، أما ابن المعتز فقد شغف بصناعة الشعر شغفا شديدا ، فتأق في ألفاظه وفي أسلوبه ، وأجاد في ألوان البديع وأصباغ الزخرف التي وشى بها شعره ، وعنى بذلك عناية كبيرة ، ومع ذلك فإنه لم يغفل نزعات التفسكير التي كان يدفعه إليها عقله وبيئته وألوان الثقافات التي امتزجت بالحياة العقلية في هذا العصر الخصب ، فكان شعره صورة عامة لمدرسة أبي تمام ومدرسة البحتري ومثلها أدق تمثيل مع ظهور شخصيته ووضوح أثره في الحياة الأدبية وتطور الشعر في عصره .

فأبو تمام شاعر مبدع ألقيت إليه زعامة الشعر من جميع الشعراء في عصره وآثر في نظم الشعر تجويد المعنى ودقته ، فكان « لطيف الفطنة دقيق المعاني غواصا على ما يستصعب منها » ، وهو « متكلف إلا أنه يصيب ؛ وشغله المطابقة والتجنيس جزل المعاني ؛ مدحه وراثؤه لا غزله وهجاؤه وطارت له أمثال وحفظت له أقوال » ولا يتعلق بحمده جيد أمثاله ورديئه مرذول مطروح ، « وكان صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ متبعة » « وهو راس في الشعر ومبتدئ المذهب سلكه كل محسن بعده فلم يبلغه فيه » وقصد شغف بجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب وبالصنعة وقصد البديع ؛ فهو أكثر الشعراء بديعا واقتناا وصنعة في شعره إلا أن مصنوعه جيد يشبه أن يكون مطبوعا وحلاوة شعره ودقة أسلوبه خفيت الصنعة فيه كثيرا وهو من المعروفين بجودة الرثاء « ولم يكن له حلاوة توجب حسن التغزل وكان يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك في شعره وكان يأتي في شعره برد الإعجاز على الصدر ولا يأتي به

الإشاعر متصنع كجيب ونظرائه وقصيدته « متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل،  
محشوة بالصنعة، وتكلف فيها ألوان البديع بما عيب هو وأشباهه عليه. وشعره  
مباين للشعر في عصره مباينة واضحة من حيث تصوره للشعر وشدة أخذه  
نفسه بتجويد المعنى ووحدة القصيد وفي كلفه بوصف الطبيعة وميله إلى المعانى  
الفلسفية يضمونها شعره أيا كان الموضوع الذى ينظم فيه .

ويرى بعض النقاد أن أبا تمام لا يعد في نظر أهل العصر الحاضر مثلاً أعلى  
للشعر لأنه لم ينقل في شعره كثيراً من صور العواطف التى كانت تجيش  
بصدر المجتمع في ذلك الحين ولم يمثل الحياة القومية في عصره تمثيلاً صحيحاً، ولم  
يكن كأبي العلاء حراً في إبداء ما يختلج بنفسه من المعانى، ولا شجاعاً في بيان  
ما يعتقده حقاً. ومهما يكن فقد كان أبو تمام رأس طبقتهم، وأخمل هو والبحترى  
في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد كما يقولون، وتتلذذ عليه كثيرون كالبحترى  
وسواه .

وكان البحترى يقدمه وكذلك ابن الرومى ولم يدركه ابن المعتز وإن كان  
تتلذذ على أدبه وشعره .

وكان البحترى تلميذ أبي تمام، وكان يتشبه به في شعره، ويحذو حذوه  
في البديع وكان يراه صاحباً وإماماً، وترسم خطأ أبي تمام ومضى على أثره في  
البديع، إلا أنه أحسن في سبك اللفظ على المعنى، وأراد أن يشعر فغنى . واستمد  
معانيه من وحى الخيال وجمال الطبيعة لا من آراء العلم وقضايا المنطق والفلسفة  
فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته ورونقه، حتى قال المتنبي فيه : « أنا وأبو تمام  
حكيان والشاعر البحترى ، .

شخصية بغدادية أندلسية  
أبو علي القالي البغدادي  
٢٨٨ - ٥٣٥٦

( ١ ) .

ترجع شهرة أبي على القالى إلى كتابه الجليل «الامالى»، ويعد كتاب الامالى لأبى على اسماعيل بن القاسم القالى البغدادى من أشهر مصادر الأدب العربى القديم، ويعد من أصول الثقافة الأدبية، وقد أشاد به العلماء والأدباء والنقاد يقول فيه ياقوت فى معجم الأدباء<sup>(١)</sup> : « كتاب الامالى معروف بين الناس، كثير الفوائد، غاية فى معناه ». وقال أبو محمد بن حزم فيه : هو مبارك لكتاب الكامل الذى جمعه المبرد، ولئن كان كتاب أبى العباس المبرد أكثر نحوا وخبرا، فإن كتاب أبى على أكثر لغة وشعرا<sup>(٢)</sup>.

والكتاب دائرة معارف واسعة فى الأدب والنقد والشعر واللغة، وهو بحق فى مقدمة أمهات كتب الأدب العربى المحدودة. ويقول القالى فى مقدمة الكتاب : « أودعته فنونا من الأخبار، وضروبا من الأشعار. وأنواعا من الأمثال، وغرائب من اللغات، على أنى لم أذكر فيه بابا من اللغة إلا أشبعته، ولا ضربا من الشعر إلا اخترته، ولا فنا من الخبر إلا انتخلته، ولا نوعا من المعانى والمثل إلا استجدته؛ ثم لم أخله من غريب القرآن، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، على أننى أوردت فيه من الابدال ما لم يورده أحد، وفسرت فيه من الاتباع ما لم يفسره بشر<sup>(٣)</sup> ».

ويقول محقق كتاب الامالى : إن أئمة اللغة والأدب طالما تجدهم ينظمون فى كتبهم من درره، ويغترفون من بحره، وهو تأليف جزل الفائدة، جم

---

(١) ص ٣٥٢ ج ٢ معجم الأدباء لياقوت .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) ص ٣ ج ١ الامالى طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م - وقد تحدث صاحب الامالى عن الاتباع فى الجزء الثانى من كتابه صفحة ١٠٨، كما تحدث عن الابدال أيضا فى الكتاب .

النفع لمن يريد التحق في علم اللغة ، وتزين عقله بالآداب العربية ، والأخبار  
المنتخبة ، والاشعار المختارة ، والأمثال المستجادة .

وقد طبع الكتاب لأول مرة في مطبعة بولاق الأميرية بالقاهرة عام  
١٣٢٢ هـ ، فأقبل على اقتنائه العلماء والأدباء إقبالا منقطع النظير ، وقررت  
وزارة المعارف المصرية تدريس الكتاب في مدرستي دار العلوم والقضاء  
الشرعي وفي غيرهما من المعاهد العلمية إبان ذلك العهد ، واتخذ في الأزهر  
الشريف كتابا للمطالعة ، ثم أعيد طبعه بمطبعة دار الكتب المصرية عام  
١٣٤٤ هـ - ١٩٢٦ م مع إدخال تحسينات عليه ، والحاق فهارس مستوفاة به ،  
وإضافة كتاب التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه ، للإمام أبي عبيد  
البكري<sup>(١)</sup> إليه ..

والأما مطبوع في دار الكتب المصرية في جزئين يقع الأول في  
٢٨٤ صفحة عدا المقدمة ، والثاني في ٣٢٦ صفحة ، وكتاب ذيل الأمالي  
والنواذر للقال أيضا في ٢٢٤ صفحة . أما كتاب التنبيه مع فهارس الأمالي  
فيقع في ٢٢٤ صفحة أيضا .

والتعليقات التي نشر بها الكتاب في طبعته قليلة وإن كانت قيمة ، ولدى

---

(١) هو عميد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الوزير ، من أعيان الأندلس  
وأدبائها وعلماؤها المشهورين ، كان من أهل مرسية ، وبها ولد عام ٤٣٢ هـ - ١٠٤٠ م  
ونشأ ، ثم هاجر إلى قرطبة ، ثم لاذ بصاحب المرية فاصطفاه لصحبته وآثر مجالسته  
والأنس به ، وتهادى ملوك الأندلس مؤلفاته . وكان من أهل اللغة والآداب  
الواسعة ، والمعرفة بالتاريخ والأنساب والأخبار والشعر ، وتوفي بقرطبة عام  
٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م ( ٢ : ٥٢ عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ،  
و ١ : ٢٨٢ ابن بشكوال ، وراجع كذلك المقدمة التي نشرت في صدر كتاب  
التنبيه ، بقلم الأب أنطون صالحاني اليسوعي ) .

شرح واسع مستفيض ضخيم للكتاب يقع في ستة أجزاء كبار ، حجم كل جزء لا يقل عن خمسمائة صفحة ، إلا أنني حتى اليوم لم أحاول نشر هذا الشرح الضخم لما يتكلفه من أعباء مالية كبيرة ، ولفقدان التشجيع على نشر مثل هذه الآثار والتأليف .

وتراثنا الأدبي القديم في حاجة ماسة إلى العناية به ، وطبع روائعه ، وعلى كثرة سبل الطبع والنشر اليوم ، فإنه لم يعد أحد في عهدنا الحاضر يعنى بمثل هذه الكتب ، لأن شباب العرب صار اهتمامهم بقراءة القصص والمجلات أكثر من اهتمامهم بقراءة المصادر والأصول ثقافتنا العربية الإسلامية .

## ( ٢ )

والقالى من أشهر أعلام الادب العربى القديم، وهو إمام فى اللغة وعلوم الأدب ، وله مؤلفات جمّة مأثورة مشهورة ، ويقول الزبيدى فيه : « ما نعلم أحدا من المتقدمين ألف مثله <sup>(١)</sup> » . وكان القالى أحفظ أهل زمانه للغة وأرواهم للشعر وأعلمهم بعلم النحو على مذهب البصريين ، وأكثرهم تدقيقا فى ذلك . وحياة القالى مثال رائع لحياة العلماء المسلمين فى العصور القديمة ، عصور النهضة العسكرية والازدهار العلمى ، والتشجيع الكامل من الخلفاء والوزراء والأعيان . . إن العلم فى العالم الإسلامى القديم لم يكن وسيلة للدعاية السياسية ولا للشهرة الرخيصة ، ولا للإعلان الكاذب ، ولا للمجد . . إنه كان حركة ضخمة لخدمة التقدم والرقى بالحضارة وإعزاز شأن العقل ، والنهوض بمستوى الحياة ، وكان العلم والتعليم كله مجانيا ، وأجور العلماء ومكافآت الطلاب كلها من الدولة ، هذا إلى الاوقاف الضخمة ، التى كان يرصدها أعيان المسلمين على الجامعات والمدارس والمساجد وحلقات العلم ، وإلى حد كبير يصبح أن نقول اليوم إن حركات التعليم فى العالم العربى والإسلامى لا روح لها ، لأنها

(١) ٢ : ٣٥٢ معجم الادباء لياقوت .



ليست خالصة لوجه الله ، وليس المقصود بها العلم في حد ذاته ، وإنما تتجه للكسب المادى ، ولتسنى الوظائف ، ولإدراك الشهرة قبل كل شيء ، ومع التقدم الزمنى الكبير فلا زلنا فى العلم المادى عالة على الغرب . أما علومنا الإسلامية الأصيلة فقد قلت العناية بها وضعف الإقبال عليها ، وفترت روح العلماء والمتعلمين حيالها ، وتكاد الأيام المقبلة تهدد الثقافة الإسلامية الأصيلة تهديدا خطيرا : بإضعاف روح الإقبال عليها ، وإهمال شئون طبعها ونشرها وبانعدام إدراك فائدتها وقيمتها .

فكتاب ككتاب الأمل الذى نتحدث عنه لم يعد اليوم مقرا للدراسة فيما نعلم إلا فى كلية اللغة العربية ، وهذا شأن الكامل للبرد ومقدمة ابن خلدون والبيان والتبيين للجاحظ وزهر الآداب للحصرى وسواها .

ولد أبو على اسماعيل بن القاسم بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان مولى عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى المشهور عام ٢٨٨ هـ بمنازجرد من أعمال ديار بكر<sup>(١)</sup> ، وبها نشأ وحصل أطرافا من العلم ، ثم رحل عنها إلى العراق لطلب العلم والتحصيل ، وفى طريقه إلى بغداد كان فى رفقة جماعة من « قالى قلا »<sup>(٢)</sup> ، وكانوا - كما يقول القالى - يكرمون لمكانهم من الثغر ، فلما دخل بغداد نسب إليهم لكونه معهم ، وأطلق عليه القالى ، وأحيانا كانوا يسمونه البغدادي لطول إقامته فى بغداد ، وكانت رحلة القالى إلى بغداد عام ٣٠٣ هـ ، وهو فى الخامسة عشرة من عمره<sup>(٣)</sup> ، وفى بغداد تبلد على فحول

---

(١) بغية الملتبس للضبي ص ٢١٨ ، وهو أحد السكتب التى ترجمها المكتبة الأندلسية ، وهى الصلة لابن بشكوال فى جزين ، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ، وتسكلة الصلة لابن الأبار وتسكلة التسكلة لابن الأبار ، وبغية الملتبس للضبي ، والمعجم لابن الأبار ، وفهرست مارواه عن شيوخه من الدواوين فى ضروب العلم وأنواع الممارف أبو بكر بن خليفة الأحموى الأشيبلى . وقد نشرت المكتبة الأندلسية فى مدريد بإشراف المستشرقين الأسبانيين : كوديرا . ورييرا .

(٢) قرية من قرى « منازجرد » . (٣) ١ : ٣٥٣ معجم الأدباء لياقوت .

العلماء ، وأئمة الثقافة ، وجهابذة الرواة ، من مثل: البغوى المتوفى عام ٣١٧ هـ ، والعدوى ( ٢١٠ - ٣١٩ هـ ) والسجستاني المتوفى عام ٣١٦ هـ ، وابن صاعد ( ٢٢٧ - ٣١٧ هـ ) ، وابن درستويه ( ٢٥٨ - ٣٤٧ هـ ) والزجاج المتوفى عام ٣١١ هـ ، والرخفص الصغير المتوفى عام ٣١٥ هـ ، وابن دريد ( ٢٢٣ - ٣٢١ هـ ) ونفطويه المتوفى عام ٣٢٣ هـ ، وابن السراج المتوفى عام ٣١٦ هـ ، وابن الانبارى المتوفى عام ٣٢٨ هـ ، وسواهم من أعلام العلماء الذين يروى عنهم وينوّه بعلمهم .  
وبدا نبوغ القالى فى علوم اللغة والادب لأساتذته ، وأخذت شهرته تزداد فى حلقات العلم والثقافة فى بغداد ، وجلس للتعليم والإفادة ، وظل ربع قرن مقبىا فى بغداد متعلما ومعلما ومحققا ومفيدا ، حتى جاءت سنة ٣٢٨ هـ ، فكانت سنة تطور كبير فى حياة القالى الثقافية والادبية .

كان القالى ينتمى إلى بنى أمية ، وكان هواه معهم ، وكان ازوراره عن بنى العباس شبه معروف للخاصة من أترابه ولداته ، وكان لبنى أمية دولة فى الاندلس أسسها الداخل عام ١٣٨ هـ ، وظلت قائمة حتى عصر القالى .

وكان من الممكن أن يسمع الامويون فى الاندلس بعالم كبير ينتمى إلى بنى أمية ، ويعيش فى بغداد شبه مغضوب عليه .

وكان الحكم فى الاندلس إبان ذاك للخليفة الاموى المشهور عبدالرحمن الناصر الذى تولى الحكم فى الاندلس خمسين عاما ( ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ ) رفع فيها منار العلوم والآداب فى هذه البلاد ، ووطد فيها دعائم الدولة ، ونهض بمملكته نهضة جليلة ، وحارب خصومه وانتصر عليهم فى مواقع عديدة ، وكان يساعده فى حكم البلاد ابنه وولى عهده الحكم بن الناصر الذى ولى الخلافة بعد أبيه ستة عشر عاما ( ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ ) . وكانت عاصمة الخلافة الأموية فى الاندلس هى قرطبة منذ أسس عبدالرحمن الداخل مملكة أموية فيها ، وفى عهد الناصر وابنه الحكم أسست المكتبات ، وأنشئت الجامعات والمدارس ، وازدهرت الحركة العلمية فى الاندلس ازدهارا لم يحدث له نظير من قبل .

(٣)

وكانت قرطبة إبان ذاك تعد من العواصم الكبرى في العالم ، وقد بلغت من الحضارة منزلة تكاد تصل إلى المنزلة التي بلغتها بغداد ، وكان سكانها أكثر من مليون نسمة ، وقد أنشأ الناصر على مقربة منها مدينة الزهراء الخالدة ، وينقل المقرئ عن أبي سعيد مؤلف « الحلة المذهبة في مملكة قرطبة » أن هذه المدينة كانت أكثر بلاد الأندلس كتباً ، وكان أهلها أشد الناس اعتناءً بخزائن الكتب ، صار ذلك من آليات الرياسة ، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون له معرفة يحتفل أن تكون في بيته خزانة كتب ويحفظ بها ، وما هو إلا أن يقول : عندي خزانة كتب ( أى مكتبة ) ، والكتاب الفلاني ليس عندي غيري ، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصلته وظفرت به ، ويقول سديو : كانت هذه المدينة تصبح مضيفة ، وحاراتها مطيبة بما يلقى فيها من الزهور ، مع استعمال الألحان المطربة في المنزهات والميادين العامة .

وفي لحظة حاسمة في حياة القالي وصلته رسالة من الناصر خليفة المسلمين في الأندلس ، يرغب في الوفود عليه ، لنشر علمه ، ولبي القالي الدعوة ، وسافر إلى قرطبة ، مودعا بغداد وعهده فيها ، وحياته بها .

وفي أحد ثغور الأندلس وصلت السفينة التي تقل علمنا الكبير ، وتلقاه بأمر الحكم ولي العهد في الميناء ابن رماحس في وفد من العلماء والوجهاء ، وساروا وسار معهم القالي في موكب نبيل إلى قرطبة ، يتذاكرون الأدب ، ويتناشدون الشعر .

وكان ممن صحب القالي إلى قرطبة الأديب الأندلسي ابن رفاعة الألبيري ، وللقالي معه قصة غريبة ، أنشد القالي في الطريق بيتاً من الشعر لعبدة بن الطيب :

ثمت قننا إلى جرد مسومة أعرافها لأيدينا مناديل

فأنكر ابن رفاعة البيت ، واستعاده من القالي مراراً فأنشده القالي في كل مرة « أعرافها » ، وقال : « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين الناصر ، وتتجشم

الرحلة لتعظيمه ، وهو لا يقسم وزن بيت مشهور بين الناس لا يغلط فيه الصبيان ، والله لا تبعثه خطوة ، ، وانصرف عن الجماعة .

ولعل هذه القصة هي التي جعلت القالي يشهد للأندلسيين بالعلم والذكاء ، يقول ابن بسام في الذخيرة عن القالي : لما وصلت القيروان وأنا أعير من أمر به من أهل الأمصار فأجدهم درجات في العبارات وقلة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد ، كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم خاصة ومقايضة ، فقلت : إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم ، بقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم ، فسأحتاج إلى ترجمان في هذه الأوطان . قال ابن بسام : فبلغني أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق الأندلسي في ذكائهم ، ويتخطى عنهم عند المباحثة والمفاصلة ، ويقول لهم : إن علمي علم رواية وليس بعلم دراية ، فخذوا عني ما نقلت ، فلم آل لكم أن صححت .

دخل القالي قرطبة لثلاث بقين من شعبان عام ٣٣٠ هـ كما يقول ابن خلكان ، فأكرم الناصر وفادته ، وأعلى في دولته مكاتبه ، وآثره بالعطف والتقدير ، بتأديب ولى عهده الحكم ، وتنقيفه ثقافة أدبية وعربية خالصة ، واستوطن قرطبة ، وأخذ يلقي محاضراته ودروسه في حلقات مسجد الجامع ، فأورث أبو علي أهل الأندلس علمه ، وأقبل عليه أهل الأندلس للإفادة والتعلم والتأديب من دروسه التي كان يلقيها من روايته وحفظه في كل يوم خميس بقرطبة ، في المسجد الجامع بالزهراء ، وكان أبو علي واسع العلم ، كثير الرواية ، طويل الباع في علوم الأدب واللغة ، مما شهد به علماء عصره ، فسمع الناس منه ، وقرأوا عليه كتب اللغة ، والأخبار والأمالى ، وعظمت استفادتهم منه . ومن تلاميذه في هذه الفترة : الزبيدي مؤلف كتاب مختصر العين وإمام اللغة والأدب في الأندلس في عصره وسواه .

ولشاعر الأندلسي الرمادى يوسف بن هرون السكندى قصيدة في مدح القالي ، قال فيها :

روض تعاوده السحاب كأنه متعاود من عهد إسماعيل  
 قسه إلى الأعراب تعلم أنه أولى من الأعراب بالتفضيل  
 حازت قبائلهم لغات فرقت فيهم وحاز لغات كل قبيل  
 فالشرق خال بعده فكأنما نزل الخراب بربعه المأهول  
 وكأنه شمس بدت في غربنا وتغيبت عن شرقهم بأفول  
 وحقا كان القالى شمسا بدت من المغرب ، وخلا منها مكانها في المشرق .  
 وعاش القالى عشرين سنة في الأندلس في خلافة الناصر ، ثم ست سنوات  
 أخرى في خلافة الحكم بن الناصر ، الذى شمله بالعطف والعطاء ؛ مما جعله  
 في سعادة ورخاء ونعمة و فراغ بال ؛ وما جعله يعكف على الإفادة والتأليف .  
 وللقالى كتب عديدة منها : الأمالى ، والممدود والمقصود ، وكتاب الإبل ،  
 وكتاب حلى الإنسان والخييل وشياتها ، وكتاب « فعلت وأفعلت » ، وكتاب  
 مقاتل الفرسان ، وتفسير السبع الطوال ، وكتاب البارع في اللغة ، وسواها .  
 وكان بين أبى على القالى وبين العلماء والأدباء في الأندلس صداقات  
 ومداعبات ووفاء ، وكان من معاصريه من علماء اللغة بالأندلس : ابن القوطية  
 وغيره .

وكان تعصب الدولة في الأندلس لكل ما هو أموى يرفع من مكانة  
 القالى فيها ، وخاصة عند الخليفة الناصر وولى عهده ، ولذلك رفعت مكانته  
 في الدولة ، واحتل منزلة سامية فيها ، وصار عميد العلماء والأدباء في عصره ،  
 كما كان إمام الأدب وشيخ اللغة في زمانه .

وما يدلك على مكانة القالى أن الخليفة الناصر وولى عهده الحكم كانا  
 يعهدان إليه بتمثيل الدولة في أخطر المواقف السياسية ، حتى ليروى أن  
 الناصر كلفه بالخطابة أمام وفد الروم لولا أن أبا على بهت وانقطع عنه الكلام  
 في هذا الموقف ، فقام مقامه منذر بن سعيد البلوطى .

وتوفي القالى فى قرطبة فى ربيع الآخر عام ٣٥٦ هـ ، وشيعت جنازته  
الاندلس كافة ، وبكاه فيها العلماء والأدباء والطلاب بكاء حارا ، رحمه الله  
رحمة واسعة .

#### ( ٤ )

ومقدمة كتاب الامالى سجل ثمين يكشف لنا ألوانا عديدة من حياة القالى  
وأدبه ، فهى تمثل نثره الفنى أصدق تمثيل ، وهى تصور لنا البواعث النفسية  
لتأليف الامالى ، والقالى فيها يشيد - بعد حمد الله - بفضل العلم وترفع العالم ،  
ويثنى فيها على الناصر وتشجيعه للأدب ، وعلى ولى عهده الحكم ، ويذكر  
أنه أملى « الامالى » فى يوم الخميس بقرطبة ، وفى المسجد الجامع بالزهراء  
المباركة ، ثم يختم المقدمة ببيان ما اشتمل عليه الكتاب من بحوث وآراء  
ودراسات .

والامالى مع مظهره الأدبى العالى ، يدل على ثقافة لغوية واسعة ، وهو  
حافل بالفوائد اللغوية التى لا توجد فى كتاب ، فتجد القالى فيه مثلا يتعرض  
لتفسير مادة « نساء » ومادة « لحن » ومادة « حرد » ، ويفسر الغريب من  
حديث السحابة التى نشأت ورسول الله جالس بين أصحابه صلى الله عليه وسلم ،  
ويتعرض للكلام على غريب حديث : « ألم أخبر أنك تقوم الليل ، وتجده  
كذلك يخصص مطالب لترتيب أسنان الإبل وأسمائها وأسماء الرجل يحب  
حادثة النساء ، ولأسماء الشخص ، ولأسماء الألوان وأوصافها ، إلى غير ذلك  
ما اشتمل عليه الكتاب من ثقافة لغوية عرض لها المؤلف قصدا ، أو ذكرها  
أثناء شرحه لنصوص أدبية قديمة أو محدثة ، وفى فصول فى الكتاب يذكر  
ما تتعاقب فيه العين والحاء ، والهمزة والهاء ، والسين والتاء . الخ .

أما ثقافات الكتاب الأدبية فينطق بها ما احتوى عليه الكتاب من روائع  
الآثار الأدبية المروية عن العصر الجاهلى والإسلامى والأموى وصدر دولة  
بنى العباس ، وهى نصوص أدبية رفيعة قد لا توجد فى كتاب آخر ،

سواء ما سجله القالى منها من النثر أم الشعر .  
وفى الكتاب كذلك آراء وأحكام ومجالس فى النقد ، وهى ذات أهمية  
كبيرة فى ثقافة الأديب ومتذوق الأدب .

والنصوص الواردة فى الكتاب تفسر لنا بعض الجوانب الغامضة من  
حياة العرب فى الجاهلية وعصر صدر الإسلام وبنى أمية ، تصويرا كبيرا  
له مدلوله التاريخي .

وأكثر روايات القالى عن ابن دريد ، ويظن أن مجالس ابن دريد الواردة فى هذا  
الكتاب هى مقدمة لظهور فن المقامة فى الأدب العربى ، ومنها مثلا حديث  
البنات الثلاث اللاتى وصفن فيه ما يحببن من الأزواج وسوى ذلك ، والقالى  
يمزج النثر بالشعر والخطب بالأمثال ، والحكمة بالوصية ، والنقد بالشرح ،  
ويأتى بعد ذلك بالطرائف المستجادة ، والفوائد المستحسنة ، بما يروع ، ويسحر .

وبين بحوث الكتاب اللغوية يعقد القالى مطالب يذكر فيها ما قال الشعراء  
فى الحديث ، أو فى البكاء ووصف الدموع أو فى العناق أو غير ذلك ،  
ويذكر كثيرا من القصائد المشهورة فى الأدب العربى ، أو يعرض لحديث  
الشعر أو النثر ، أو لسوى ذلك من الموضوعات الطريفة .

وكثيرا ما يستروح القالى إلى شئ من النقد ، فيذكر مثلا سؤال بعض  
خلفاء بنى أمية لجرير عن أشعر الناس ، أو يروى مفاضلة بين عمر وجميل  
فى الغزل ، أو يذكر ما يستحسن ويستجاد من شعر شاعر ، بما يدل على روح  
النقد الأصيلة ، أو سوى ذلك .

أما ملاحظات البكرى على القالى ، فمع كثرتها نجد بعضها يتصل بتصحيح  
اسم من الأسماء ، كأن يذكر القالى خطبة لعبد الملك وإنشاده شعر قيس  
ابن رفاعه ، فيذكر البكرى أن صحة الاسم هى أبو قيس بن أبى رفاعه ، وكان  
يحقق الرواية الأدبية ، وكان يصحح شرحا لنص من النصوص ؛ أو سوى  
ذلك ، وهذه التنبيهات فى جملتها مفيدة مهمة .

وبعد فان كتاب القالى دائرة معارف فى الأدب القديم ، وهو ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة ، والإحاطة التامة ، والثقافات الواسعة ، وهو من أجل ما ألفه القالى من مؤلفات .

وهو صورة لآداب المشرق فى مختلف العصور إلى آخر القرن الثانى الهجرى ، وآداب المشرق كانت فى الأندلس من الطرف الجميلة ، التى يحتفل بها ، وتروى وتذاع . وليس فى الكتاب طبعاشىء من آداب الأندلسيين وآثارهم ، إنما هو صورة مشرقة واضحة لذوق أدباء المشرق وشعرائه ونقاده .

ونحن فى هذه الدراسة الموجزة ننوه بفضل القالى على الأدب ولغة العرب وثقافات الأدباء فى القديم والحديث ، ونوصى الشباب أن يقرأوا « الامالى » ويستفيدوا مما فيه من آثار ونصوص وحكم وآداب ، فهو جدير بالعناية والاهتمام .

( ٥ )

وللقالى كتاب « البارع » فى اللغة : وهو معجم ابتداء فيه منذ سنة ٣٣٩ هـ وعاون فيه وراق اسمه محمد بن الحسين الفهدى من أهل قرطبة منذ عام ٣٥٠ هـ واستمر فى تأليفه حتى توفى القالى إلى رحمة الله فتولى تهذيبه وراقه مع محمد بن معمر الجبانى . وكان قد أتمه . ولم يستطع تبليغه ونقله . بل نقل كتاب الهمزة . وكتاب الهاء . وكتاب العين . .

والبارع مبنى على حروف المعجم : وجمع فيه كتب اللغة ، وعز كل كلمة من الغريب إلى من نقلها عنه من العلماء ، واختصر الإسناد عنهم ، وهو يحتوى على ٥٠٠٠ ورقة .

وقد اتبع القالى فيه طريقة الخليل ومنهجه : فبنى « البارع » على مخارج الحروف ، ولكنه لم يسر على ترتيب الخليل . فبدأ بالهمزة ، ثم بالهاء ، ثم بالعين ، مع خلاف يسير فى الترتيب ، ومع مخالفة الخليل فى الأبنية وترتيبها



فهي عند القالى ستة : أبواب الثنائى المضاعف ويسميه الثنائى فى الخط والثلاثى فى الحقيقة ، وأبواب الثلاثى الصحيح . وأبواب الثلاثى المعتل ، وأبواب الحواشى ، وأبواب الرباعى ، وأبواب الخناسى . . والقالى يتبع الخليل فى ذكر الكلمة ومقلوبها . .

ومن البارع قطعتان : أحدهما فى المتحف البريطانى برقم ٥٢٩٨١١ ، والثانية فى المكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٢٣٥ وقد صورهما الدكتور فلتون وجعلهما فى كتاب .

والبارع أول معجم يظهر فى الأندلس ، وهو صورة لمعجم المشاركة ولابتكارهم<sup>(١)</sup>

---

(١) الصحاح ومدارس المعجمات الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ص ١١٧ و ١١٨

# ترجمة المقافات في القرن الثاني والثالث الهجري

( ١ )

كان للعباسيين وخاصة في هذا القرن شغف شديد بالعلوم والآداب ،  
وولع كبير بالمعارف والثقافات ، إذ تنوعت حضارتهم ، واتسع عمرانهم ،  
وامتد سلطانهم ، وانفسحت أطراف مملكاتهم ، حتى شملت كثيراً من  
الأمم العربية في العلم ، الأصلية في الحضارة والمدنية .

وكانت هذه الأمم التي امتد نفوذهم إليها ، وانبسط سلطانهم عليها ،  
كالفرس والروم ، ذات علوم وآداب ومعارف ، تمخضت عنها عقولهم ،  
وتفتقت بها قرائنهم ، أو نقلوها عن غيرها من الأمم التي اتصلوا بها من  
قديم . وقد وجد العرب أنهم أمام معارف يزخر بها العالم إذ ذاك ، ولا غنى  
لملكهم عنها ، فأقبلوا عليها بكل ما فيهم من شوق ونهم ، يترجمونها ويعربونها ،  
ويضيفون إلى قديمها جديداً ، يتمخض عنه إدراكهم وتفكيرهم .

فاليونان حكمتها وفلسفتها وطبها ، ولها أعلامها الأفاضل ، كسقراط  
وأرسطاليس وأفلاطون وأبقراط وجالينوس وغيرهم .  
وللكلدانيين شهرتهم في الطب والنجوم .

وللهند ثقافة واسعة مدونة في النجوم والطب والحساب والآداب .

وكان للسريانيين ثقافة واسعة في الطب والفلك ورصد الكواكب . ولهم  
مدارس كثيرة تدرس فيها علومهم وآدابهم بالسريانية واليونانية ، كمدسة  
الرها ، وقلسرين ، ونصيبين .

وللفرس آداب وعلوم انتقلت إليهم من الهند والصين ، ثم من اليونان  
في أزمنة مختلفة ، فقد ترجموا إلى لغتهم كثيراً من كتب اليونان ، كالمنطق .  
كما نقلوا من علوم الهند كتباً في النجوم والطب والآداب . هذا بالإضافة إلى  
ماورثوه من علوم وآداب أصيلة عندهم .

وكان سابور بن أردشير يبعث البعوث إلى بلاد اليونان لطلب كتب  
الفلسفة ، وترجمتها إلى الفارسية ، وأنشأ مدرسة جنديسا بور المشهورة ،  
وكان أساتذتها من الهنود واليونانيين ، ثم جاء كسرى أنوشروان العادل ،

ففتح أبواب دولته للوافدين عليه من الفلاسفة اليونانيين الوثنيين الهاربين من اضطهاد جوستينيان « قيصر الروم لهم ، على إثراققاله المدارس والمعابد الوثنية وأكرمهم وطلب منهم التأليف والترجمة في الفلسفة والطب والنجوم ، كما أكرم وفادة العلماء الهنود والسريانيين .

واتصل المسلمون في هذا العصر بثقافات تلك الأمم وعلومها وآدابها ، فازدادوا حبا لها ، ومعرفة بقيمتها ، ورغبة ملحة في الاستفادة منها . . وكان الفارسيون الذين وصلوا إلى أعلى مناصب الدولة يشجعون نشرها وتداولها ، كما كان الخلفاء يقبلون عليها ، ويمشون على ترجمتها إلى اللغة العربية . وهكذا بدأت الترجمة في العصر العباسي : صغيرة ناشئة ، ثم أثمرت ثمراها ، وآتت أكلها بعد قليل .

وكان الباعث على العناية بترجمة العلوم إلى العربية : ما آلت إليه الدولة من حضارة ومدنية مما استلزم تشجيع العلوم والآداب ، وكذلك رغبة العلماء في استخدام المنطق والفلسفة للدفاع عن الدين ، ثم كانت اللغة العربية غالبة على هذه الممالك المفتوحة . فكان لابد أن تنقل من معارفها وثقافتها أحسن وأروع ما تعز به من آثار ، ومن هنا نشطت حركة الترجمة ، إذ وجدت في اللغة استجابة وسرعة .

ومن البواعث كذلك تشجيع الخلفاء والأمراء والوزراء للترجمة ، التي أصبحت هي الصلة الوثيقة بين العرب وعلوم الأمم القديمة وثقافتها . ويعتبر كثير من مؤرخي الفكر حركة ترجمة العلوم في العصر العباسي من أعظم الحوادث الفكرية في تاريخ المسلمين ، وليس ثمة شك في قيمة هذه الحركة الجبارة ، التي كان لها أكبر الآثار في سير الحضارة الإسلامية الإنسانية .

( ٢ )

ويمكن تقسيم حركة الترجمة في هذا القرن إلى ثلاثة أطوار :  
فالطور الأول يبدأ من خلافة المنصور إلى آخر عهد الرشيد ، أي من

عام ١٣٦ هـ حتى عام ١٩٣ هـ ، وقد مضى عهد السفاح دون عناية منه بالترجمة لقصر حكمه ، ولشغله الشاغل بتأسيس الدولة وتوطيد أركان الخلافة العباسية .

فلما ولي المنصور عني بترجمة العلوم عناية فائقة ، وخاصة الطب والهندسة والنجوم ، وبعث إلى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله أن يوصله بما لديه من كتب الفلاسفة ؛ واستخار لها مهرة الترجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها إلى العربية <sup>(١)</sup> ، وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والفارسية والسريانية والهندية <sup>(٢)</sup> . . ولم يترجم له شيء من الفلسفة والمنطق وسائر العلوم العقلية ، وإنما ترجمت بعد عصره ، وكان المنصور معنيا بعلم النجوم عناية فائقة ، وقرب إليه من المنجمين فويخت المنجم الفارسي وأولاده ، وإبراهيم الفزاري ، كما قرب إليه جوب جيس بن بختيشوع السرياني رئيس أطباء مدرسة جنديسابور ، إذ أعجب به واتخذة طبيباً له . . ومن أشهر المترجمين في عهده ابن المقفع .

أما المهدي والهادي فقد شغلا بمحاربة البدع والزندقة ، فألهما ذلك عن تشجيع حركة الترجمة .

فلما ولي الرشيد الخلافة كانت الثقافة مزدهرة ، والعلوم منتشرة ، والأذهان متفتحة لقيمة العلم والترجمة ، فأخذ يعمل على تقوية النهضة العلمية بكل ما في قواه من جهد وعزيمة ، فقرب إليه العلماء ، وكان يستصحب معه كلما سافر مائة عالم ، واتخذ أطباء وتراجمة له من السريانيين ، كآل بختيشوع وآل ماسويه ، وقد ترجمت في عهده كتب كثيرة في الطب والنجوم والكيمياء والنبات والحيوان والخيال والفلسفة والأخلاق ، وأنشأ الرشيد في بغداد « دار الحكمة » ،

(١) ٤٨٩ مقدمة ابن خلدون و ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الاندلسي .

(٢) ٢٤١ : ٤ المسعودي .

التي كانت تحتوى على نفائس الكتب من شتى اللغات . وقد أعيد في عهده ترجمة الكتب التي سبق ترجمتها في عصر المنصور .

وفي هذا الدور الخطير ترجمت كتب كثيرة ، من أهمها : كلية ودمنة من الفارسية ، وكتاب السند هند من الهندية ، وترجمت بعض كتب ارسططاليس في المنطق وغيره ، وترجم كتاب المجسطى في الفلك ، وأخذ المعتزلة يقرأون هذه الترجمات ، ويتخذون منها مادة للجدل والمناظرة .

وكان البرامكة يشجعون الترجمة والمترجمين تشجيعاً كبيراً ، ويسخون سخاء نادراً على كل مجهود يتصل بالعلم والثقافة . فكان لتشجيعهم أبلغ الآثار في ازدهار العلوم وتقدم المعارف ونمو حركة الترجمة وتطورها .

والطور الثاني لحركة الترجمة يبدأ ببداية حكم المأمون وينتهي بنهايته ، وكان المأمون عالماً متضلعا واسع الثقافة كثير الاطلاع ، وكان نهمة العقلي والعلمي لاحد له ، وقد أولى الترجمة عنايته الشديدة واهتمامه البعيد . فأوفد الرسل إلى ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين لنسخها بالخط العربي ، وبعث المترجمين لذلك ، وأنشأ في بغداد مدرسة لتخريج التراجمة ،

وقد كان عصر المأمون أزهى عصور الترجمة ، لأنه كانت له مشاركة في كل العلوم ، وكان يناصر الاعتزال ويحاول تأييد هذه النزعة بمنطق اليونان ، ولذلك كان ينفق بسعة وسخاء شديد على حركة الترجمة ، حتى أعطى وزن ما يترجم ذهباً ، وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة ، ويرغبهم في تعلمها ، ويخلو بالحكماء ويأنس بمحاضرتهم . .

وتبع الأمراء والوزراء الخليفة في هذا المضمار ، فوفد على بغداد عدد جم من المترجمين من كل نحلة وطائفة .

وكان المأمون في العرب كبريكليس في اليونان ، وأغسطس في الرومان ، فأنتم ما بدأ به آباؤه ، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسرمان والفرس والهنود ، وأمر ولاته بأن يعثوا إليه بالكتب التي تقع في أيديهم ، وجعل

من شروط الصلح بينه وبين ملك القسطنطينية أن يرسل إليه مجموعة من الكتب النادرة .

أما الطور الثالث من أطوار حركة الترجمة فيبدأ بخلافة المعتصم وينتهي بقتل المتوكل عام ٢٤٧ هـ

ففي عصر المعتصم فترت حركة الترجمة ، إذ لم يكن للخليفة تحصيل في العلم أو رغبة في المشاركة فيه .

وجاء بعده نواثق ، وكان ذكيا ، واسع الاطلاع ، كبير الثقافة ، يشجع العلم والعلماء ، فنهضت الترجمة في عهده ، واستعادت بعض ما كان لها قبل من نشاط ، وإن كان أكثر ما ترجم في عصره هو الأسفار والخرافات .

وفي عهد المتوكل على الله قد تمت ترجمة العلوم النافعة ، كالطب والنبات والنجوم ، لأنها كانت تروج عند الخليفة وتلقى تشجيعاً وعظفاً ، وكان المتوكل آخر الخلفاء الذين آزرُوا حركة الترجمة ؛ وأعانوا على نقل علوم الأمم إلى العربية لغة القرآن الكريم .

### ( ٣ )

وقد نبغ في هذا العصر طائفة من أشهر المترجمين :

فمن أشهر المترجمين عن اليونانية : الحجاج بن يوسف بن مطر ، وكان من جملة المترجمين للهمون ، وقام بنقل كتاب إقليدس والمجسطي إلى العربية ، ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحراني .

ومنهم كذلك قسطا بن لوقا البعلبكي ، وهو من نصارى الشام ، وكان طبيباً حاذقاً ، ترجم وألف رسائل كثيرة في الطب .

ومنهم موسى بن شاكر وكان من المترجمين للهمون . وسار على نهجه كذلك أولاده الثلاثة : محمد وأحمد والحسن .

ومنهم آل حنين ، وأولهم حنين بن إسحق العبادي شيخ المترجمين (١٦٤ - ٢٦٤ هـ) وهو من نصارى الحيرة ، ثم ابنه إسحق المتوفى عام ٢٩٨ هـ .

ومنهم حبيش الدمشقي وهو ابن أخت حنين بن إسحاق آل بختيشوع وهم من السريان وقد خدموا الخلفاء العباسيين من المنصور إلى المتوكل .

وقد ترجم هؤلاء وسواهم كثيراً من علوم اليونان وفلسفتهم وحكمتهم ومعارفهم في المنطق والطب والهندسة والسياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق وغيرها ، ومن أشهر ما ترجموه : كتاب السياسة نقله حنين بن إسحاق ، وكتاب الأخلاق ترجمه إسحاق ، وكتب جالينوس وإقليدس . وقد نقل الحجاج بن مطر لإقليدس كتاب أصول الهندسة ، كما ترجموا أصول فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو .

ومن أشهر المترجمين عن الفارسية : عبد الله بن المقفع ، وآل نوبخت ، والحسن بن سهل ، وجبله بن سالم ، وإسحق بن يزيد ، وهشام بن القاسم ، وسواهم .

وقد ترجموا عن الفارسية كتباً كثيرة ، من أشهرها : كتاب كلیلة ودمنة الذي ترجمه ابن المقفع ، وكتاب خدائنامه ، الذي ترجمه كذلك ابن المقفع ، وسماء كتاب سير ملوك الفرس ، وترجم كذلك الأدب الكبير ، والأدب الصغير ، والدرة اليتيمة ، وكتاب التاج في سيرة أنوشروان .

ومن الكتب المترجمة عن الفارسية أيضاً : عهد أردشير ، وتوقيعات كسرى ، وهزار أفسانه<sup>(١)</sup> وهو أصل من أصول ألف ليلة وليلة ، وكتاب أدب الحرب ، وسوى ذلك من نفائس المؤلفات .

ومن مشهورى المترجمين عن الهندية : منكه الهندى الطبيب الذى عالج الرشيد ، وصالح بن بهلة الهندى الذى دخل بغداد فى عهد الرشيد أيضاً ، ونال شهرة واسعة ، واشتدت مخالطته للأطباء . . .

وقد نقل هؤلاء المترجمون عن الهندية الكثير من كتب الطب والنجوم



والفلك والرياضة والحساب والتاريخ والأسماء . وما ترجم من كتب الأدب الهندي : كتاب سندباد الكبير ، والصغير ، وكتاب بيدبا في الحكمة ، وكتاب السند هند — أى الدهر الدهر — فى الفلك وقد ترجمه من الهندية محمد بن إبراهيم الفزارى .

وقد كان هناك مترجمون عن العبرية والقبطية والسكندانية . وما نقل عن السكندانيين كتاب الفلاحة ، وكتاب أسرار السكواكب . . وسواهما من نفائس المؤلفات .

#### ( ٤ )

وقد أهمل الأدب اليونانى فى الترجمة إهمالا كبيرا ، فقد عنى المترجمون عناية خاصة بفلسفة اليونان وحكمتهم ، فترجموا الكثير من آثارهم فيها إلى العربية ، من مثل : مؤلفات أرسطو وشروح علماء مدرسة الإسكندرية القديمة عليها ، وكتب أفلاطون ؛ وأهم كتب جالينوس فى الطب وعلى الجملة فقد ترجموا أهم ما ابتكره العقل اليونانى فى العلم والفلسفة .

ولكنهم لم ينقلوا إلينا شيئا يذكر من آداب اليونانيين . . فإذا قرأنا الكتب المترجمة نجدها تبحث فى كل فرع من فروع المعرفة القديمة ، ولا نعثر على كتاب أدبى يونانى مشهور ترجم إلى اللغة العربية ، مع وفرة مالىونان والرومان من آثار أدبية عالية فى القصص والتشيل .

على أنهم قد ترجموا بعض مؤلفات فى علوم قريبة إلى الأدب كالتاريخ والأسماء ، فهذا ابن النديم ينقل فى كتابه الفهرست أسماء كتب للروم فى هذين الفنين ترجمت إلى العربية<sup>(١)</sup>

وتساقط إلى العرب من الأسرى اليونانيين ، ومن الموالى الذين اختلطوا بهم من هذين العنصرين ، كثير من الحكم والأمثال ، مما تحفل به مصادر الأدب العربى ، كالبيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، وعيون الأخبار . . .

---

(١) ٣٠٥ و ٣٠٦ الفهرست .

وترجم لهم بعض هذه الأمثال والحكم ، مما ينسب لفثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو . يروى ابن النديم أن على بن ربن النصراني نقل كتاباً في الأدب والأمثال على مذاهب الفرس والروم والعرب<sup>(١)</sup> . .

وهذه الأمثال والحكم على أى حال أبسط ألوان الأدب ، وهى شبيهة بما يعرف منهما عند العرب . وقد كان ولوع العرب بهما حافظاً على ترجمة بعض ما يؤثر منهما إلى العربية ، بعد تجريدتهما مما يختلط بهما من أسماء ، وما يلبسهما من مظاهر حياة اليونان الاجتماعية . . إذ هما حينذاك قريبان من ألف العربى ، وليس فيهما ما ينفر منه من أساطير ، ولا يحتويان على أوزان شعرية لاستسيغها العربية .

وكذلك تساقط إلى العرب بعض آراء في البلاغة والنقد ، مما يؤثر عن بعض اليونانيين : ولكن ذلك كله بعيد عما عرف من روائع الأدب اليونانى القديم ، كالأساطير والملاحم والتشليات ، وعما شهروا به من خطابة وكتابة وشعر غنائى ، فلم تترجم إلى العربية إلا ذلة هو مبروس ، ولا ماشابهها من الآثار . . مما يدل على أن المترجمين صرفوا نظرهم عنها ، وأعرضوا إعراضاً عن نقلها إلى العربية .

ويمكننا أن نفسر إهمال الأدب اليونانى في الترجمة إلى العربية بأن العرب كانوا أكثر الناس اعتزازاً بلغتهم ، واعتداداً بأنفسهم . مما جعلهم يحتقرون آدب اليونان ، ولا يقدرونها حق قدرها . . وخاصة لبقاء اليونانيين على النصرانية وبعدهم عن حكم المسلمين ، بخلاف الفرس الذين أسلموا ، وخضعوا للحكم الإسلامى . . ولعل في هذا ما يفسر لنا غض نقاد العرب المتأخرين من أدب اليونان وثقافتهم في صناعة البيان . فهذا ابن الأثير يذكر في كتاب « المثل السائر » أن الشعر والخطابة في الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة

اليونان البيانية ، وينبغي أن يكون هو قد تأثر في رسائله وكتابه بما ذكره علماء اليونان في حصر المعاني ، ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا في الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئاً<sup>(١)</sup> .

وكان العرب يؤمنون بأنهم أوفر الأمم حظاً ، وأعلام كعباً ، وأكثرهم آثاراً ، في الأدب والشعر ؛ فهم في غنى عن أن تترجم لهم آداب الأمم القديمة ، وخاصة أن عنايتهم كانت موجهة إلى نقل ما هم في حاجة ماسة إليه من ثقافات ومعارف .

وإنما ترجموا ألواناً من الآداب الفارسية ، لأن الأدب الفارسي على العموم قريب من ذوق العربي كقرب ما بين الفرس والعرب من صلات وجوار ، والأدب الفارسي في جملته ليس فيه من الأساطير والحديث عن الآلهة نظير ماتحفل به الآداب اليونانية الوثنية ، ولهذا كان بعض نقاد العرب المتأخرين يصورون إعجابهم بأدب الفرس ، فهذا ابن الأثير يقول في كتاب «المثل السائر» : «إني وجدت العجم يفضلون العرب في الإسهاب ، مع الاحتفاظ بالجودة ، فإن شاعرهم يذكر كتاباً مصنفاً من أوله إلى آخره شعراً ، وهو شرح قصص وأحوال ، ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفرس في نظم الكتاب المعروف بشاهنامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاءهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه . وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها ، وتشعب فنونها وأغراضها ، وعلى أن العجم بالنسبة لهم كقطرة من بحر » .

ولم يحسد المترجمون حائلاً يحول بينهم وبين نقل هذه الآداب الفارسية

---

(١) ص ٢٠ المثل السائر .

إلى العربية ، بل كانوا يلقون الكثير من ألوان التشجيع من العناصر الفارسية ذات النفوذ والسلطان في الدولة العباسية ، وخاصة الوزراء الذين ينتمون إلى أصول أعجمية ؛ وكان المترجمون يتقربون أحيانا إلى هؤلاء الوزراء بترجمة آداب أمهم ، التي تمجد تاريخهم القديم ، وقوميتهم الخالدة ، وملوكهم الأجداد وأبطالهم المغاوير ، كما كانوا يتقربون إلى الخلفاء بترجمة الطرائف الأدبية ، والملح الممتعة ، لتسكون مادة للمفاكهة والسمير .

وفي هذا جميعه ما يدلنا دلالة واضحة على أنه لم يكن هناك تأثير للأدب اليوناني في الأدب العربي . . أما التأثير الأكبر ، فقد كان لعلومهم وفلسفتهم . وبذلك نستبين أن الآداب الفارسية كانت أكثر تأثيراً في الأدب العربي من الآداب اليونانية .

# الامتزاج الثقافي بين العرب والعناصر الأجنبية

(١)

فتح الله للمسلمين الأرض ، ودان لحكمهم المشرق والمغرب ، وخضعت لسلطانهم أمم ذات مجد تليد ، ومملك قديم ، وحضارة زاهرة ، ومدنية باهرة ، وورثوا ملك كسرى وقيصر ، وفي أقل من قرن أصبحت دولتهم تمتد من الأندلس ومراكش غرباً إلى الهند والصين شرقاً ، وحكم العرب هذه الأقطار والأمصار ، وأقامت بها جيوشهم ، وهاجرت إليها قبائلهم ، واختلطوا بهم وعاشروهم ، ودخل كثير من هذه البلاد المفتوحة في الإسلام ، وتعلموا العربية لغة القرآن الكريم ، واتصلوا بالعرب في السكنى والمعيشة ، والتجارة وشتى شئون الحياة ، وتزوج العرب منهم ؛ ودخلوهم مداخلة شديدة ؛ حتى نشأ جيل جديد من المولدين ؛ الذين نسلوا من آباء عرب وأمّهات أعجميات ؛ وكان العرب قبلهم السادة والحكام ، ويبدى شئون الدولة والولاية ، ولهم النفوذ والسلطان ، وكانوا يتعصبون لكل ما هو عربي ، ويضعون الأعاجم في منزلة دون منزلتهم . فلما قامت الدولة العباسية ، بدأ الموالي يرفعون رؤوسهم ويعتزون بكرامتهم . ويمنون بأيادهم على الخلافة . وينادون بأن لا فضل للعرب عليهم ، لأنهم أقدم من العرب حضارة ، وأعرق منهم سلطاناً . وأخذت شوكتهم تقوى ، ونفوذهم يزداد . وأصبح منهم الوزراء والقواد ، وكبار الكتّاب وحاشية الخليفة ، وعماله وولاته . . . وهكذا زاد امتزاجهم بالعرب ، وتغلغلوا في أنحاء الدولة ، وكان لسياسة العباسيين وما أعلنوه من المساواة بين العناصر والشعوب ، والعرب والموالي ، أثره البعيد . وحسبنا أن الكثير من العلماء والأدباء ، بل الخلفاء والأمراء كانوا من أعجميات .

وكان للجواري والقيان اللواتي كثرن في قصور الخلفاء والأمراء والأثرياء ، أثر كبير في زيادة الامتزاج والاختلاط ، وكن يوزعن على الفاتحين ، ويبعن في الأسواق ، ويهدين كما تهدي الطرف النادرة ، وكانت

هؤلاء الجوارى من عناصر فارسية وتركية ورومية ، وكان من أظهر العناصر التي زاد امتزاجها بالعرب : الفرس والروم والترك .  
فالفرس كانوا عماد النظام السياسى والإدارى للدولة ، وكانت لهم المنزلة الرفيعة فيها طوال هذا العصر ..

وأما الأتراك فكانوا يلون الفرس فى المسكنة ثم قربهم إليه المعتصم واصطفاهم ، فزاد خطرهم ، وقويت شوكتهم ، وأصبحوا أولى النفوذ فى الخلافة ، وبلغ بهم البطر والإفساد أن قتلوا الخليفة المتوكل على الله ، ذلك لما كانوا عليه من ضعف فى الأخلاق ، وعيث بالنظام ، وإفساد للأمن ، ومن شراهة فى جمع المال ، وحب للهو والشهوات ، على أن هؤلاء لم يتميزوا بسمة إلا بالنظافة والجمال ، وحب الجندية والفروسية ؛ وكانوا ينتصرون لمذهب أهل السنة ؛ ويكرهون الاعتزال والفلسفة والجدل فى الدين .

وأما الروم فقد كثروا فى بيوت السادة والمترفين ، وكان منهم الغلسان والجوارى ، وسارت شهرتهم بالجمال والظرف والذكاء ، وثقوب الذهن وحدة الخاطر ، والإلمام ببعض الثقافات .. وإلى جانب هؤلاء وجد الزوج الذين كانوا يجلبون من سواحل إفريقية الشرقية ، ليعملوا فى الزراعة والصناعة ، وفى بيوت الطبقات المتوسطة .

ولقد نشأ عن تقرب الخلفاء للعجم ، أن بدأ نفوذ العرب فى الاضمحلال ، وجاء المعتصم فقطع أرزاقهم من دواوين الجند ، وأحل مواليه من الترك محلهم فاندمجوا فى غمار العامة ، وتكسبوا بالزراعة والحرف الصغيرة ، وضعفت فيهم الروح العربية ، وزاد امتزاجهم بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية بالمصاهرة والمخالطة والمعاشرة والمجاورة .. ومهما يكن من شيء فقد أصبحت دولة الخلافة على سعة رقعتها ، وتعدد العناصر والشعوب فيها ، بفضل هذا الامتزاج الشديد ، والاختلاط البعيد ، قريبة النزعات والميول ، متشابهة الأخلاق والعقائد والتفكير والعادات ، يحكمها حاكم واحد ، وتتكلم بالعربية ، وتدين بالإسلام ، وتربطها وشائج من المودة

والحبة والتعاون والإخاء ، وصلات من المنفعة والمصلحة أو من المصاهرة واختلاط الدماء .

( ٢ )

ولاريب أن هذا الامتزاج كان شديد الخطر ، عظيم الأثر ، في حياة الدولة الاجتماعية ، حتى لقد ظهرت نتائجه واضحة جليلة في الأخلاق والعادات والتقاليد ، وفي العقول والأجسام ، وشتى نواحي المعيشة والحياة ، مما نستطيع تصويره فيما يلي :

انتشرت العادات الفارسية في المجتمع في هذا العصر ، بسبب هذا الاختلاط الذي صورناه ، وذلك الإمتزاج الذي شرحناه ، سواء في الطعام أو الشراب أو السكنى ، أو اللهو والغناء . فذاع اللعب بالشطرنج والزند ، والخروج إلى البوادي والقرى للراحة أو الصيد ؛ واصطحب الإخوان للنزهة بين الرياض والوديان . وأخذ العرب يحاكون الفرس في العناية بموائدهم . ووضع الزهور والرياحين عليها . وفي تنسيق البيوت . وإعداد الحجرات ، وفي الاحتفاء بالأعياد الفارسية احتفاء شديداً . ومن بينها عيد النيروز ويوم المهرجان . حيث حرصوا على أن يتلقوا فيهما التهاني والهدايا .

وذاعت الأزياء الفارسية : من قلانس وأقيية . وعمائم . وسواها .

وتبع ذلك كثرة اللهو والترف ، حتى إنهم كانوا ينفقون الأموال الطائلة في غير طائل . اللهم إلا إشباعاً للنفس . وإرضاء لداعى اللهو واللذة . فلا عجب أن غالوا في مآدبهم وحفلاتهم مغالاة شديدة . حتى ليروى أن الرشيد لما بنى بريدة بنت جعفر بن المنصور اتخذ وليمة لم يكن لها شبيه فيما مضى من المآدب على طول الأيام ، وكانت الهبات فيها لا تنتهى . وكذلك فعل المأمون في بناءه ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل عام ٢١٠ هـ . فقد أعطاها في صداقتها ألف حصاة من الياقوت . وأوقد الشموع الهائلة من العنبر ، وصنع الطعام والمآدب الفاخرة .



وأولعوا بالغناء . وتفننوا فيه . وأبدعوا في ألحانه وجددوا في آلاته .  
وأكثرثوا في مجالسه من المالح والعبث والشراب .  
وكانت بغداد تعجب أصحاب الثراء لسعة عمرانها . وبهجة منظرها .  
وروعة قصورها ومتنزهاتها وميادينها وشتى مظاهر الحضارة فيها .  
وكان التباين بين طبقة الخاصة وطبقة العامة شديدا : فالنفوذ والثراء وحياة  
اللذة والنعيم حظ المترفين ، ولغيرهم الشقاء والهلم المقيم .

وقد استلزم الترف : المغالة والبهتان ، والتنافس في تشييد القصور ، حتى  
قيل إن المعتصم أنفق على بناء سامرا أموالا طائلة ، وأنفق المتوكل على بناء  
« الجعفرى » الملايين من الدنانير . وأكثرثوا من تشييد البرك والحدائق  
والدور والقصور ويوت العبادة ، إلى غير ذلك من مظاهر الترف والنعيم .

وعلى نمط النظم الفارسية سارت إدارة الدولة ، حتى لقد أنشئت المناصب  
الرفيعة في الخلافة ، كمنصب الوزارة الذى تقلده في هذا العصر أفذاذ من  
الرجال ، كأبى سلمة الخلال وزير السفاح ؛ وأبى أيوب المورىانى وزير  
المنصور ، ويعقوب بن داود وزير المهدي ، والبرامكة الذين وزروا للرشد ،  
وبنى سهل الذين وزروا للبايمون ، وقد مكن هؤلاء للنفوذ الفارسى ، والتقاليد  
والعادات والنظم الفارسية في دولة الخلافة .

### ( ٣ )

وظهر أثر هذا الاختلاط الشديد في العقول والأفكار ، فانسعت الثقافة  
ونضج التفكير ، ودقت الأفهام ، وحصفت العقول ، وقويت المدارك . ونمت  
المواهب ، وجنح الناس إلى العلوم والفنون والآداب ، يروون منها ظمأهم ،  
ويشبعون نهمهم . كل ذلك أثر للاختلاط ، الذى دعا إلى امتزاج الثقافات ،  
والعناية بالترجمة ، وإحياء علوم الأهم القديمة من فرس ويونان ورومان  
وسريان وسواها ، وأخذ العرب يتحضرون ! وينشئون المدارس ويشيدون

خزائن السكتب ودور الحكمة ، ويجمعون بين فلسفة اليونان وآداب الفرس وأساطير الهنود ، ومعارف سواهم من الشعوب .

أما أثره في الأجسام فهو غير خفى أو منكور ، فلا شك أن العربى قد صاهر أبناء الأمم الأخرى ، فكسب بسطة في الجسم وسلامة في البدن ، ونشأ جيل جديد من المولدين يحملون طابع العرب وخصائص العجم<sup>(١)</sup> ، ويمتازون بفراهة الأجسام ، وسلامة البنية ، ووفرة الجمال ، مع تنوع الموهبة والحدق في الصناعة . إلى ماسوى ذلك من خصائص ويميزات .

#### ( ٤ )

وبتأثير الاختلاط ذاع العبث والمجون والفساد والإلحاد والزندقة التى حاربها المهدي والرشيد حرباً لاهوادة فيها ، كما شاعت الشهوات والملذات ، فأقبل الناس على مجالس اللهو والشراب ، وكان للقيان والجوارى أثرهن في هذا الميدان .

وإن كنا لاننكر أن الامتزاج قد أكسب العربى سعة أفق ، ورحابة صدر وسماحة روح ، حتى أصبح لا يستأثر بالخير ، بل يشرك معه في الفضل سواه . وضاعت منه عنجهية البداوة ، وحمية الجاهلية الأولى ، وجفاء الأخلاق ، وخشونة الطباع ، فصار لين العريكة ، موطأ الأكناف ، دمثاً مهذباً ، يدين بالمحبة والإخاء .

وبعد فقد كان لهذه المظاهر العديدة ، التى نشأت عن الامتزاج بين العرب والعجم ، أثرها الشديد في تنوع الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، وتوزعها بين نسل ولهو ، وترف وفقر وإيمان وإلحاد ، وفي اصطباغها بصبغة التجديد وانطباعها بطابع قوى من الحضارة والمدنية .

---

(١) الابن الذى يولد من أب عربى وأم أعجمية يسمى « هجيناً » . والذى يكون من أب أعجمى وأم عربية يسمى « مقرفاً » .

(٥)

وكان لامتزاج العرب بالأعاجم آثاره البعيدة في تهذيب الأفكار ، وصقل الأخيلة ، ونضج الثقافة ، وتجويد ألوان الكلام من شعر ونثر ، حتى لباس الدارس الفروق واضحة بين الأدب العربي في هذا العصر والأدب في العصور السالفة .

فلقد نشأ بتأثير هذا الامتزاج - في الأدب ، فنون أدبية لم تكن موجودة كالقصص والمقامات وأدب الزهد والتصوف وأدب الطبيعة ، ونفشت ألوان الخلاعة والمجون في الأدب ، كالإغراق والمبالغة في وصف الخمر والتشبيب بالجوارى والتغزل بالمذكر .

ولا شك أن نفشى هذه الألوان وذيوخ تلك الفنون إنما كان بتأثير الاختلاط وامتزاج الحياة العربية بالحياة الأجنبية وما تزخر به من الترف والمفاسد ، وما تحمل بين ثناياها من شهوات طاغية . ونزوات طائشة . ومتع آثمة .

ولقد ترجم عبد الله بن المقفع كتاب كلیة ودمنة من الفارسية إلى العربية . فرأى العرب طراز القصة في النثر ، وأكبوا عليها ، وأعجبوا بها . حتى لقد نظمها أبان اللاحق شعرا .

وكان من تأثير الامتزاج أن تطور فن الوصف في الأدب العربي . ونما نموا واضحا . واتسع مجاله . وانفسح مداه . فهذه مظاهر الحضارة المختلفة من قصور ورياض . وأنهار وبرك وغدران . تتوالى صورها أمام أنظارهم ، فتلهب شاعرهم ، وتسمو بأفكارهم ، وتحلق بأخیلتهم .

وهذه أيضا عادات العجم وتقاليدهم وأزيائهم ، ومواسمهم وأعيادهم ، ومجالس لهوهم وشرابهم وغنائهم ، ومرايع جواربهم وغلماهم . كل ذلك قد أطلق الألسنة ، وفق الأخيلة ، وأيقظ المشاعر ، وأذكى الحواس ، فأخذوا يصفون هذه الألوان التي بهرهم بريقها ، وأسهرهم جمالها ، وأخذ بالباہم

مافيه من حسن ونضارة، فوصفوا كل هذه المظاهر أبلغ وصف، وعبروا عنها أجمل تعبير .

ولقد ورث العرب كذلك عن الأعاجم غزارة المعنى ودقته، وعمق الفكرة وتسلسلها، وحسن الاستقصاء، وكثرة الاستطراد، وبراعة التحليل. فظهر ذلك بصورة واضحة في آدابهم، ومأثور أشعارهم. ومن هنا رأينا طول النفس يتجلى في القصيدة العربية، لكثرة الاستطراد والاستقصاء والتحليل. كما رأينا شعرهم يحمل الكثير من المعاني الدقيقة، والأخيلة البعيدة والفكرة العميقة.

ومما زاد في ظهور هذه الآثار أن كثيراً من شعراء هذا العصر كانوا يرجعون إلى أصول غير عربية، كبشار وأبي العتاهية وأبي نواس ثم ابن الرومي وغيرهم.

ولقد جد الوزراء والكتاب الفرس في نشر ثقافتهم وآدابهم والتمكين لمعارفهم في البيئة العربية، حتى صار الإلمام بهذه الثقافة والتمكن من تلك الآداب مما يرفع قدر الأديب، ويجعله ملحوظ المكانة مرموق المنزلة. فإذا كان مطالعاً على تاريخ الفرس وأنظمتهم في الحكم وطرائقهم في السياسة، اشتدت الرغبة فيه وكثرت الحاجة إليه.

يقول عبد الحميد الكاتب من وصيته إلى الكتاب: «واعرفوا أيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكم على ماتسمون إليه هممكم» وقال الرشيد للكسائي معلم بنيهِ: «رونا من الأشعار أعفها، ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق، وذاكرنا بآداب الفرس والهند» .

وأصبح للثقافة الفارسية في بغداد والخواضر العربية مقام كبير، زاد من شأنه وعظم من خطره حرص الوزراء والكتاب وأرباب النفوذ من نبتوا من أصول فارسية على التمكن لها وإشاعتها، ثم حركة الترجمة الواسعة من الفارسية إلى العربية.

( ٦ )

ويظهر أثر الثقافة الفارسية في لغة العرب فيما يلي :

١ - الألفاظ الفارسية التي عربت ونقلت إلى العربية ، وهي كثيرة لا حصر لها .

فقد أخذ العرب كثيراً من الكلمات الفارسية وصقلوها بما يتفق ولسانهم . وكان هذا التعريب موجوداً منذ العصر الجاهلي ولكنه زاد ونما في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين .

٢ - قيام اللغة العربية بمقتضيات الملك والسياسة والحضارة ، بتأثير الثقافة الفارسية ، التي زادت في ثروة العربية ، وجعلتها أقدر على النهوض برسالتها ، وبعثت فيها دماء التجديد والقوة والحياة بزيادة الألفاظ اللغوية عن طريق التعريب والتوسع في مدلولات الألفاظ العربية ، ووضع مصطلحات العلوم .

٣ - ترجمة كثير من المؤلفات الفارسية في الأخلاق والآداب والسياسة والطب والحكمة والفلسفة إلى اللغة العربية ، مما كان له أثره في زيادة مادة اللغة العربية وأغراضها ومعانيها وأفكارها .

وأثرت كذلك الثقافة الفارسية في الأدب العربي تأثيراً كبيراً يظهر بوضوح فيما يلي :

١ - كانت زعامة التجديد في الأدب العربي شعره ونثره في عصر نفوذ الخلفاء العباسيين معقوداً لواؤها بيد المثقفين بالثقافة الفارسية والعربية ، فعبد الحميد الكاتب وابن المقفع هما إماما التجديد في النثر في هذا العصر ، وبشار وأبو نواس شقا طريق التجديد للمولدين في الشعر . . وكان نتاج العرب الذين يجيدون الفارسية والفرس الذين يجيدون العربية يجمع خير ما في بلاغات العرب والفرس جميعاً من معانٍ وخيالات وأساليب ، لذلك أحدثوا

آثاراً واسعة في الشعر والنثر ، فجددوا في المعاني والخيالات والأغراض وطرق الأداء ، وبعد أن كان الأدب في عهد بني أمية عربياً خالصاً ولم يكن للفرس إلا مدارسته وحفظه وروايته ، أصبح في عهد بني العباس يزدان بأحلى وأزوع مافي أدب الفرس من معان وأخيلة فتعددت الأغراض ، واتسع مجال التفكير والخيال وظهر التأنيق في التعبير ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ بأساليبها ، يقول الجاحظ عن موسى بن سيار ، وهو أحد من حذق الفارسية والعربية وأشهر القصاص في هذا العصر : « كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية » ، ومثله كثير من أجدادوا اللغتين ، وجمعوا بين الثقافتين : كابن المقفع وسهل بن هارون والفضل بن سهل وسواهم ، ممن كان لهم فضل كبير في رقي الأساليب العربية ، واقتباس المحسنات البديعية ، واتساع الخيال ، واستحكام المعاني والإبداع والاختراع والتجديد فيها .

٢ - وكانت للفرس حكم وأمثال وتصويرات بديعة وأخيلة دقيقة ، وضع ذلك كله تحت أعين العرب ، وكانت المعاني الفارسية ترشد العربي إلى أشمل طرق التصوير والتعبير ، وكان الشعراء ينظمون مايتسرب إليهم من الصور الفارسية .

وكان العتابي الشاعر لصلته بالثقافة الفارسية جيد المعاني والأخيلة ، وسئل : لم كتبت كتب العجم ؟ فقال : وهل المعاني إلا في كتب العجم ، فالبلاغة لنا والمعاني لهم .

ويقول أبو هلال العسكري في رسالته : « التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم » : « للفرس أشعار لاتضبط كثرة ، ولليونانيين أشعاردون الفرس » ٣ - هذا إلى ما جد من فنون أدبية بتأثير الامتزاج بين العرب والفرس وانتشار الثقافة الفارسية ، كالآداب القصصية ، وأدب الزهد . وأدب المقامة . وسواها .

وإن كنا لا ننكر ما سرى إلى العربية بتأثير الثقافة الفارسية : من ضعف الملكات وكثرة العناية بالبديع الذى يحول دون البساطة والاعتماد على الطبع .

### ( ٧ )

وقد اختلط بعض الهنود بالعرب . ودخل العرب بعض جهات من الهند . وبدأ يظهر أثر هذا الاختلاط . فتسربت الثقافة الهندية إلى العالم العربى ، وترجمت بعض مصادرها وأصولها إلى اللغة العربية مباشرة بواسطة العرب الذين تعلموا العربية ، وعن طريق الثقافة الفارسية التى كانت قد التهمت من قبل الكثير من المعارف الهندية .

وكانت الهند تشتهر بالحساب وعلم النجوم والطب والصناعات والتماثيل والنحت ، وبالْحِكْمَة التى كان الهنود معدنها ، وبالإلهيات والرياضيات .

يقول القفطى فى « أخبار الحكماء » (١) : والهند هم الأمة الأولى ، كثيرة العدد ، نخمة الممالك . قد اعترف لها بالحكمة ، وأقر بالتبريز فى فنون المعرفة ، كل الملل السالفة . وكان الصين يسمون ملك الهند ملك الحكمة وينبوع العدل والسياسة . ولبعد الهند من بلادنا قلت تأليفهم عندنا ، فلم يصل إلينا إلا طرف من علومهم ولا سمعنا إلا بالقليل من علمائهم .

وقد استقدم يحيى بن خالد البرمكى بعض الأطباء من الهند أمثال منك . ونبغ من الموالى الذين جلبوا من الهند وغنموا فى الحرب ووزعوا على الجنود ومن أولادهم : الشعراء والأدباء والعلماء ؛ كأبى عطاء السندى الشاعر ؛ وكابن الأعرابى العالم اللغوى المشهور ؛ وسواهما .

والهنود نحو وصرف ، ولهم ولع بالشعر ونظمه ، ونقلت عنهم آراء فى

البلاغة والأدب .. قيل لبهله الهندى : ما البلاغة عندكم ؟ فقال : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة لا أحسن ترجمتها لك ، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها ، فترجمت فإذا فيها ما ترجمته : « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الأمة بكلام السوقة ... » الخ<sup>(١)</sup>

وعرف العرب من عقائد الهند ومذاهبها وعلومها الكثير ، واستعانوا بالهنود فى الفلك ..

وعن الهند أخذ العرب كذلك لعبة الشطرنج ، ونظموا فيها الشعر الكثير . على أن أثر الثقافة الهندية فى لغة العرب كان ضئيلا يتمثل فى هذه الألفاظ الهندية التى عربت ، مثل : الزنجبيل ، والكافور ، والآنوس ، والبيغاء ، والخيزران ، والإهليلج ؛ وسوى ذلك من أسماء الحيوانات والنباتات المنقولة من الهندية .

أما أثرها فى أدب العرب فيبدو فيما اقتبسته الآداب العربية من القصص والحكم الهندية المختلفة . ولقد تأثر الشعراء بحكم الهند وأمثالهم وأقوالهم فى الفلك .

وظهرت كذلك آثار هذه الآراء فى غير الشعر ، يقول ابن قتيبة : قرأت فى كتاب من كتب الهند : « شر المال ما لا ينفق منه ، وشر الإخوان الخاذل ، وشر السلطان من خافه البرىء ، وشر البلاد ما ليس فيه خصب ولا أمن » . إلى غير ذلك مما أفاده الأدب العربى من الثقافة الهندية .

( ٨ )

وحين ازدهرت النهضة العلمية فى العصر العباسى ، وشجع العلماء ترجمة



العلوم ، أخذ السريان يترجمون الثقافة اليونانية من لغتهم إلى العربية ، كما أذاعت الكتب الفارسية المترجمة الكثير من المعارف اليونانية . . وبذلك بدأت صلة العرب بثقافة اليونان وعلومهم وفلسفتهم وحكمتهم . ثم نقل إلى العربية العديد من مؤلفات اليونان كما أسلفنا .

ويبدو أثر الثقافة اليونانية في لغة العرب فيما اكتسبته من ألفاظ متعددة عربت .

وقد أثر المنطق اليوناني في الفكر العربي تأثيراً كبيراً إذا أصبح له سلطان على العقول فاصطبغت به طريقة الجدل والبحث والتعبير والتدليل . كما كان للفلسفة اليونانية والطب والرياضة أثر كبير في عقول المسلمين .

وكان المتكلمون أكبر عامل في امتزاج الثقافة اليونانية بالعربية ، وصلة بين فلسفة اليونان وأدب العرب ؛ فقد قدموا معاني جديدة للأدباء والشعراء لم يكن لهم دراية بها .

على أن الأثر البارز للثقافة اليونانية في أدب العرب يتجلى في نقل بعض الحكايات والأسفار القصيرة وترجمة بعض الحكم والأمثال الخلقية والمعاني الفلسفية ، فتأثر بها الأدب العربي واكتسب منها سعة في الخيال وتهذيباً في الفكر .

ويهمنا أن نقرر أن الأدب العربي قد أفاد من المعارف اليونانية ، ولم يستفد من الأدب اليوناني نفسه ، إذ لم تترجم إلى العربية روائعه .

ابن المقفع وأثره في الفكر العربي

( ١ )

في أواخر دولة بني أمية وأوائل دولة بني العباس ، عاش ابن المقفع ( ١٠٦ - ١٤٣ هـ ) ، كاتباً مشهوراً ، وأديباً مرموقاً المسكاته ، وحكماً يكتب في الأخلاق والآداب والحكمة ، ومفكراً يدفع الفكر العربي إلى الأمام خطوات كبيرة .

وكان ابن المقفع من أصول فارسية ، وقد نبغ في عصره كثير من أترابه ولداته من أبناء الفرس ، الذين أسلموا وتعلموا العربية ، مثل : عنبسة الفيل النحوى ، وسبويه ، وحماد الرواية ، وزباد الأعجم ، وأبو العباس الأعشى ، الشاعران ، وبشار ، ومروان بن أبي حفصة .

وكانت كنية ابن المقفع قبل أن يسلم « أبا عمرو » واسمه روزبه وبعد أن أسلم سمي عبد الله وكنى بأبي محمد ، وكان أباه من خوزستان ( الأهواز ) وهى من أقاليم بلاد الفرس ، قريبة من البصرة ، ولذلك نزلتها القبائل العربية منذ الفتح الإسلامى ، وانتشرت بين أهل اللغة العربية ، وكانت البصرة كذلك حلقة العرب ، وجمع الثقافة ، وموطن المربد .

وكان اسم والد ابن المقفع « داذويه » ، ولده الحجاج خراج بلاد فارس فأخذ شيئاً من مال السلطان فضربه الحجاج ، حتى تقفعت يده فلقب بالمقفع وعرف ابنه بابن المقفع .

( ٢ )

ولد ابن المقفع نحو سنة ١٠٦ هـ ، ونشأ بالبصرة ، بين مواله آل الأهم ، وكانت البصرة مركزاً ثقافياً مهماً ، وفيها المربد الذى خلف عكاظ فى حمل رسالة الأدب والشعر ، وكان يؤمه الشعراء والرواة ، فينشدون الشعر ، ويعقدون مجالس الأدب والمناظرة والمفاخرة والنقد ، ومن أشهر حلقاته الأدبية حلقة جرير ، والفرزدق ، وراعى الإبل النيرى ، ومن أعلام البصرة

في عصر ابن المقفع : الخليل بن أحمد ، وبشار ، وصالح ابن عبد القدوس وسبيو به ، والحسن البصري ، وواصل بن عطاء .

وقد كتب ابن المقفع من بيئة البصرة الأدبية الكثير من ثقافات الأديب ، وكذلك من آل الأهم مواله الذين عرفوا بالبلاغة والخطابة والشعر منذ الجاهلية ، فخرج بليغا فصيحا مشهورا باللسن والأدب ، وبالحنق والذكاء . وكان يأخذ الفصاحة عن ابن يزيد الأعرابي ، ويتقن الفارسية ، إتقانه للعربية ، ولم يكن يعرف شيئا من اليونانية ، وإن زعم بعض من كتبوا عنه ذلك .

وأخذ ابن المقفع يكتب في عصر بني أمية وهو شاب لا يزيد عمره على العشرين عاما ، فكتب لداود بن هبيرة وإلى الأمويين على العراق ، كما كان عبد الحميد الكاتب يكتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية . واكتسحت جيوش العباسيين العراق ، وقتل داود وأهله فيمن قتل ، ولكن ابن المقفع نجا من القتل بفراره في ذلك الحين .

ثم خدم ابن المقفع أعمام أبي العباس السفاح - أول خلفاء الدولة العباسية - فخدم لسليمان<sup>(١)</sup> ولعيسى<sup>(٢)</sup> ولإسماعيل<sup>(٣)</sup> : أبناء علي بن عبد الله بن عباس ، وعلى بندي عيسى أسلم .

وترجم للنصور كتابا في المنطق عن الفارسية . ولما ثار عبد الله بن علي وإلى الشام علي ابن أخيه المنصور بالشام والجزيرة عام ١٣٧ هـ ، وهزمته

(١) كان يلي البصرة وأعمالها وقد ظل واليا عليها من عام ١٣٣ هـ إلى عام ١٣٩ هـ ، ومات عام ١٤٢ هـ ، في السنة التي قتل فيها ابن المقفع بأمر سفيان بن معاوية أمير البصرة .

(٢) كان يلي ولاية كرمان للسفاح .

(٣) كان وإلى الاهواز ثم الموصل .

جيوش المنصور، فر إلى البصرة، واحتفى بأخويه سليمان وعيسى، فطلبه المنصور منهما فأبيا أن يسلماه له إلا بأمان يمليان شروطه، وكتب ابن المقفع صيغة الأمان، ومما جاء فيه: «ومتى غدر أمير المؤمنين بعمة عبدالله ففساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته، فأحفظ ذلك المنصور، وكان من الأسباب التي أدت إلى مصرعه.

ولما تولى سفيان بن معاوية عام ١٣٩ هـ ولاية البصرة، لم يبال به ابن المقفع — فكان يستخر منه، ويمزأ به، ويثير عليه الناس، فنقم عليه سفيان ذلك، وأخيراً قتله ومثل به عام ١٤٢ هـ، وبذلك انتهت حياة عبقرى خالد الذكر، وهو ابن المقفع، عن ست وثلاثين سنة، وترك ابناً اسمه محمد.

### ( ٣ )

١ — كان ابن المقفع كاتباً أديباً حكيماً يجمع بين ثقافات الفرس والعرب وحكمة الهنود وفلسفة اليونان التي دخلت إلى الفكر الفارسي من قديم وإلى الفكر العربي في أواخر عصر بني أمية.

وقد ترجم إلى العربية أهم الكتب الفارسية في الأخلاق والآداب والحكمة والسياسة، مثل كتاب «خد اينامه» في سير ملوك العجم وهو مفقود، وكليلة ودمنة، وكتاب «التاج» في سيرة أنوشروان، وهو مفقود وكتاب «مزدك» وهو كتاب أدب وضع للتسلية، ويمائل كتاب «كليلة ودمنة»، وهو مفقود.

وكان ابن المقفع يترجم هذه الكتب من الفارسية<sup>(١)</sup> في أسلوب عربي

---

(١) كانت اللغة الفارسية قد مرت لإبان ذلك بطورين :

الأول طور اللغة الفارسية القديمة ( ٥٥٠ - ٣٣٠ ق م ) .

والثاني طور الفهلوية، التي ازدهرت في عصر الساسانيين، وعنها ترجمت الكتب إلى العربية، وقد ظلت حية إلى ما بعد الفتح الإسلامي بنحو قرن من الزمان.

مبين ، لانظير له في جلالته وروعته وفصاحته ونصاحته وإشراقه .

وألف ابن المقفع بعض الكتب . وله رسائله التي كان يكتبها للأمرأ .  
وتسكاد شهرة ابن المقفع بالترجمة تفوق شهرته بالتأليف لنبوغه في فن الترجمة  
مع عظمة أسلوبه فيها ، ولأن عصره كان عصر ازدهار الترجمة من شتى اللغات  
إلى اللغة العربية — ومن مؤلفات ابن المقفع كتابه : الأدب الكبير والأدب  
الصغير وهما مشهوران ، ويتحدث ابن المقفع فيهما في الأدب والحكمة والمواعظ  
والاجتماع والسياسة ووظائف السلطان .

٢ — وكان ابن المقفع على جانب كبير من نبل الخلق والوفاء للأصدقاء ،  
وكلمة ابن المقفع المأثورة هي : « ابذل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك  
رفدك ومحضرك ، وللعامة بشرك وتحيتك ، ولعدوك عدلك ، وصن بدینك  
وعرضك عن كل أحد » تمثل شعاره في الحياة ومعاملة الناس ، وقد شهر ابن  
المقفع بالوفاء إلى حد كبير ، حتى إن عبد الحميد الكاتب حين لجأ إليه بالبحرين  
بعد مقتل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين وانقراض الدولة الأموية ،  
فاجأه الطلب وهو في دار ابن المقفع ، فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما  
عبد الحميد ؟ فقال كل منهما : أنا ، إشفاقا على صديقه ، وأوشك الجند أن يفتكوا  
بإبن لمقفع لو لا أن صاح بهم عبد الحميد فاثلا : ترفعوا بنا فإن لكل منا  
علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ، وليأخذ البعض الآخر إلى من وجهكم ليذكر له  
تلك العلامات ، ففعلوا وأخذ عبد الحميد فقتل عام ١٣٢ هـ .

٣ — ونزعات ابن المقفع في الحياة ، أوفلسفته الاجتماعية ، تتجلى في أدبه  
بوضوح ، فهو يؤمن بالأخلاق الكريمة ، والمبادئ المثلى والآداب  
الإنسانية .

ويدعو إليها في أدبه وحكمته : ومن ثم نجده أكثر الكتاب دعوة إلى  
الرحمة والحب والائثار والخير والفضيلة والبر والمعروف والنبل والأريحية  
والشرف والعدل .

وقد استمد حكمته من مصادر عديدة : من أخلاق العرب ، وآداب الإسلام ، وفلسفات الهند والفرس واليونان .

وكان يعظم من شأن الدين ، ويرى أن الحكومة يجب أن تقوم على العدالة التامة في معاملة الرعية ، وبصلاح رئيس الدولة تصلح الرعية ، وبفساده فسادها . وآراء ابن المقفع وآدابه مشهورة في طاعة السلطان ومداراته ، وفي التنفير من الحسد والكذب والرزائل عامة ، وفي الحض على الشجاعة والكرم والشرف . ومن أجمل ما يؤثر له في ذلك الباب قوله : « إياك إذا كنت واليا أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية ، وأن يعرف الناس ذلك منك ، فتسكون ثلثة من الثلم يقتحمون عليك منها ، وبابا يفتحونك منه ، وغيبة يغتابونك بها ، ويضحكون منك لها ، واعلم أن قابل المدح كمدح نفسه ، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده ، فإن الراد له مدوح ، والقابل له معيب » .

وله رأى في المرأة صورته في قوله : « إياك ومشاورة النساء ، فإن رأين إلى أفن ، وعزمهن إلى وهن ، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن ، فإن شدة الحجاب خير من الارتباب ، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا تثق به عليهن ، فإن استطعت ألا يعرفن عليك فافعل ، ولا تملكن امرأة من الأمر ما جاوز نفسها ، فإن ذلك أنعم لحالها ، وأرخص لبالها ، وأدوم لجمالها ، وإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ، فلا تعد بكرامتها نفسها ، ولا تعظم أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الخلوة مع النساء فيملكنك وتملحن ، واستبق من نفسك بقية ، فإن إمساكك عنهن وهن يردنك باقتدار خير من أن يهجمن عليك على انكسار ، وإياك والتغايير في غير موضع غيره ، فإن ذلك يدعو الصحيحة منهن إلى السقم » .

٤ - وقد اتهم ابن المقفع في عصره بالزندقة ، وليس لذلك أثر في كلامه وكتبه وأدبه ولعل هذه التهمة قد ألصقت بالرجل إصافا رغبة في الانتقام منه وقتله لبواعث سياسية محضة ، وقد اتهمه معاصروه بأنه عارض القرآن الكريم بكتابه « الدرة اليتيمة » . وذلك كله محض اختلاق وإفتراء على الرجل .

( ٤ )

وألف ابن المقفع وترجم كثيرا من الكتب ، ومنها :

١ — كتاب الدرة اليتيمة ، وهو من مؤلفات ابن المقفع<sup>(١)</sup> وقد ضرب أبو تمام ببلاغته المثل فقال للحسن بن وهب :

ولقد شهدتك والكلام لآلىء تؤم ، فبكر فى الكلام وثيب  
فكأن قسا فى عكاظ يخطب وكأن ليلى الأخيلىة تندب  
وكثير عزة يوم بين بنفس وابن المقفع فى اليتيمة يسهب  
وكتاب اليتيمة حتى اليوم مجهول ، ويظن البعض أنه هو كتاب الأدب  
الكبير .

٢ — جمل فى الحكم ورسائل متفرقة وتحميدات ، نشرها الأستاذ محمد كرد على فى كتاب «رسائل البلغاء» .

٣ — وله رسالة فى الصحابة وهى فى كتاب «رسائل البلغاء» . ويتحدث فيها عن حاشية السلطان وأعوانه والآداب التى يجب أن يلتزموا بها ، فهى رسالة فى الأدب السياسى .

٤ — كلية ودمنة ، وهو من أمتع الكتب وأعظمها وأطرفها ، ويجرى على ألسنة الحيوانات لاعتقاد البراهمة بتناسخ الأرواح وتقديسهم بعضها ، وقد ألفه بالنسكري تبة فيلسوف هندى يسمى بيدبا للبك دبشليم الذى يقال إنه تولى بعد فتح الاسكندر ، وكان يشتمل على اثنى عشر بابا : باب الأسد والثور ، وباب الحمامة المطوقة ، باب البوم والغربان ، باب القرد والغليم<sup>(٢)</sup> ، باب الناسك وابن عرس ، باب الجرذ والسنور ، باب الملك والطائر فنزه ، باب

---

(١) ويذكر الباقلانى فى إعجاز القرآن أنه مأخوذ من كتاب بزرجمهر فى الحكمة

(٢) السلفمة الذكر .



الأسد وابن آوى وهو الناسك، باب اللبؤة (١) والإسوار (٢)، باب إيلاذ (٣) وبلاذ (٤) وإيراخت (٥) باب السامح والصائغ، باب ابن الملك وأصحابه .

وترجم الكتاب إلى لغة التبت، ثم فى القرن السادس الميلادى للغة الفهلوية لغة بلاد فارس، وذلك عن السنسكرىتية . ترجمه أبرويز بن أزهر بأمر كسرى أنوشروان وزيد فى الترجمة الفهلوية أبواب ثلاثة : مقدمة برزويه، باب بعثة برزويه إلى بلاد الهند، باب ملك الجرذان .

ثم ترجم الكتاب عن الفهلوية إلى السريانية نحو عام ٥٧٠ هـ، وإلى العربية نحو عام ١٢٥ هـ، على يدى ابن المقفع الذى زاد فيه ستة أبواب : مقدمة الكتاب على لسان على ابن الشاه الفارسى، عرض الكتاب لابن المقفع، باب الفحص عن أمر دمنة، باب الناسك والضيف، باب مالك الحزين والبطاة، باب الحمامة والثعلب، ومالك الحزين .

وضاع أصل الكتاب باللغة الهندية والفهلوية، ولم يبق من ترجمات الكتاب غير الترجمة العربية، وعنها ترجم الكتاب إلى كثير من اللغة العالمية . ومن الطريف أن أبان بن عبد الحميد الكاتب أراد أن ينظمه بإشارة البرامكة، فمظم فصولا منه ؛ ومن قوله فيه :

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذى يدعى كيلة دمنة  
فيه احتمالات وفيه رشيد وهو كتاب وضعته الهند  
ونظمه آخرون سواه : كالفضل بن سهل وعلى بن داود، وهذه المنظومات مفقودة اليوم .

ومن منظومات الكتاب الباقية : نظم ابن الهبارية المتوفى عام ٥٠٤ هـ وهو مطبوع، واسمه نتائج الفطنة فى نظم كيلة دمنة، ونظم ابن نماق المصرى المتوفى عام ٦٠٦ هـ للكتاب وهو مخطوط .

---

(١) أنثى الأسد . (٢) قائد الفرس . (٣) اسم ملك . (٤) اسم وزيره  
(٥) اسم الملكة .

والكتاب ألفه الفيلسوف الهندي بيدبا لدبشليم ملك الهند وكان سبب تأليفه أن دبشليم كان ملكاً طاغية ظالماً سار في قومه سيرة سيئة ، حتى مقته الشعب ، فلما رأى بيدبا الفيلسوف ما حل بالشعب على يدى هذا الطاغية ، جمع تلاميذه واستشارهم في الدخول على الملك لإسداء النصيح له ، فقالوا له : أنت أستاذنا ونحن لك تبع غير أننا نخشى عليك من شره ، فإن السباحة مع التمساح تغرير ، قال بيدبا : إن تقويم أخلاق الملك واجب علينا ، وإنى أكره أن يقال : كان بيدبا الفيلسوف في زمن دبشليم الطاغى فلم يردده عما كان عليه .

ثم إن بيدبا قام عن تلاميذه ، ولبس مسووحه ، وذهب إلى قصر الملك واستأذن من صاحب إذنه في الدخول عليه . فأذن له ، فلما مثل بين يديه واستأذنه في الكلام ، وأذن له به ، أخذ بيدبا ينصح الملك ، فاغتاظ الملك وأمر بحبسه ، ثم حدث أن غير الملك رأيه في بيدبا ، وأمره أن يؤلف كتاباً ، فيه نصيح للخاصة وتسليية للعامة ، فألف بيدبا كتاب كليمه ودمنة ، وجعله على السنة الطيور والبهائم وترجم الكتاب إلى الفارسية .

وبترجمة ابن المقفع لهذا الكتاب عن اللغة الفارسية أضاف إلى المكتبة العربية ثروة أدبية نادرة .

ومن فصول الكتاب فصل عن « الناسك والضيف » ، يبين فيه أسلوبه في الترجمة ، وقد جاء فيه :

قال الفيلسوف : زعموا أنه كان بأرض الكرخ ناسك عابد مجتهد ، فنزل به ضيف ذات يوم ، فدعا الناسك لضيفه بشمر ليطرفه به ، فأكلا منه جميعاً . ثم قال الضيف : « ما أحلى هذا التمر وأطيبه ! فليس هو في بلادى التى أسكنها ، وليته كان فيها » ، ثم قال : أرى أن تساعدنى على أن آخذ منه ما أغرسه في أرضنا ، فإنى لست عارفاً بشمار أرضكم هذه ولا بمواضعها ، فقال له الناسك : ليس لك في ذلك راحة ، فإن ذلك يشغل عليك . ولعل ذلك

لا يوافق أَرْضَكُمْ . مع أن بلادكم كثيرة الأثمار ، فما حاجتها ، مع كثرة ثمارها . إلى التمر مع وخامته ، وقلة موافقته للجسد ؟ ، ثم قال الناسك : « إنه لا يعد حكيماً من طلب ما لا يجد ، وإنك سعيد الجِد إذا قنعت بالذي تجد ، وزهدت فيما لا تجد .

وكان هذا الناسك يتكلم بالعبرانية ، فاستحسن الضيف كلامه وأعجبه ، فتكلف أن يتعلمه ، وعالج في ذلك نفسه أياماً ، فقال الناسك لضيفه : « ما أخلفك أن تقع مما تركت من كلامك وتكلف من كلام العبرانية . في مثل ما وقع فيه الغراب ، قال الضيف : وكيف كان ذلك ؟ .

قال الناسك : زعموا أن غراباً رأى حيلة<sup>(١)</sup> تدرج وتمشى ، فأعجبه مشيتها ، وطمع أن يتعلمها . فراض على ذلك نفسه ، فلم يقدر على إحكامها ، وأيس منها ، وأراد أن يعود إلى مشيته التي كان عليها ، فإذا هو قد اختلط في مشيته ، وصار أقبح الطير مشياً .

وإنما ضربت لك هذا المثل لما رأيت من أنك تركت لسانك الذي طبعت عليه ، وأقبلت على لسان العبرانية ، وهو لا يشاكلك ، وأخاف ألا تدركه ، وتنسى لسانك ، وترجع إلى أهلك وأنت شرهم لساناً ، فإنه قد قيل إنه يعد جاهلاً من تكلف من الأمور ما لا يشاكله ، وليس من عمله ، ولم يؤدبه عليه آباؤه وأجداده من قبل .

( ٥ )

كان ابن المقفع من أشهر بلغاء الناس في عصره ، ويعد في طليعة فحول الكتاب والبلغاء الذين أدركهم زمانه . من أمثال : عمار بن حمزة ، وأنس ابن أبي شريح ، وسالم ، ومسعدة ، وأحمد بن يوسف ، وعبد الحميد الكاتب .. وهو أكتب كتاب العربية في الأدب والحكمة . ومذهبه في الكتابة - أعدل المذاهب وأقومها ، لطلاوته وسلاسته ، وبعده عن الكلف والسجع ، ولا يوجد له نظير في طريقته إلا عند الجاحظ وعبد الحميد وسهل بن هرون ، وقليل من أمثالهم .

(١) الحيلة بالتحريك : طائر يمشى قفزاً كما يمشى الغلام على رجل واحدة .

وقلما أوتي إنسان ما أوتي ابن المقفع من الذكاء والثقافة والفصاحة ،  
وقال معاصروه عنه : إنه لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن  
أحمد ، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع . واجتمع الخليل وابن المقفع  
فمكثا ثلاثة أيام وليالين يتحادثان ، فلما افترقا سئل الخليل عن صاحبه فقال :  
ما شئت من علم وأدب إلا أن علمه أكثر من عقله ، وسئل ابن المقفع عن  
صاحبه فقال : ما شئت من علم وأدب إلا أن عقله أكثر من علمه .

ووصف الجاحظ ابن المقفع فقال : كان مقدما في بلاغة اللسان والقلم  
والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير<sup>(١)</sup> وكان إذا شاء أن يقول  
الشعر قاله .

وبعد ابن المقفع إمام الطبقة الأولى من الكتّاب في عصر الدولة العباسية ،  
وكانت طريقته تعمّد المؤاخاة بين التفكير الفارسي والبلاغة العربية .

وتغلب الحكمة على ابن المقفع في كتبه ومعانيه ، التي كانت تهدف إلى  
تهذيب النفوس وإصلاح الأخلاق .

ويبدو في معاني ابن المقفع ترتيب الفسكرة وحسن تقسيمها دون مبالغة  
أو غلو .

وكان ابن المقفع يروض الحكم الصعبة بسلاسة أسلوبه وعذوبة ألفاظه ،  
حتى تبدو مشرقة الجبين ، ناصعة البيان ؛ ولم تكن معانيه تستهلك ألفاظه .  
ولا ألفاظه تستهلك معانيه ، وكان يقدر اللفظ على المعنى تقدير أجميلا ، وكان  
يقول : إن الكلام يزدهم في خاطري فأقف لتخيره .

وأسلوب ابن المقفع يمتاز بالوضوح والسهولة والسلاسة والجزالة مع

---

(١) يعد بعض الباحثين ابن المقفع أول من شرع للناس طريقة تدوين التاريخ  
في اللغة العربية بترجمته كتاب « خدائنامه » في سير ملوك العجم ، فكان مثالا  
للغرب في كتابة التاريخ .

العدوبة والجمال ، وكان يعرف البلاغة بأنها « هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » وينهى عن تتبع الوحشى والغريب : « إياك والتتبع لوحشى الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العي الأكبر » ، وكان يحرص على السهولة وينأى عن الابتذال مما تراه في كلمة قالها الكاتب ، وهي : « عليك بما سهل من الألفاظ ، مع التجنب للألفاظ السفلة » ، وكذلك كان يقول : « الإيجاز هو البلاغة » ، وله كبير معرفة بمنزلة الإيجاز في البلاغة .

وكان ابن المقفع ينظم الشعر قليلاً ، قيل له : لم لا تقول الشعر ؟ قال : الذى أرتضيه لا يجيئني ، والذى يجيئني لا أَرْضاه ، ونسب له أبو تمام في الحماسة أبياتاً ثلاثة قالها في رثاء صديقه يحيى بن زياد الحارثي :

رزئنا أبا عمرو ، ولا حي مثله      فله ريب الحادثات بمن وقع  
فإن تك قد فارقتنا وتركتنا      ذوى خلة ما في انسداد لها طمع  
فقد جر نفعا فقدنا لك أننا      أمنا على كل الرزايا من الجزع

وعلى الجملة فقد كان أمة في البلاغة ورصانة القول وشرف المعاني ، إلى بيان غرض ، وسهولة لفظ ، ورشاقة أسلوب . ولا توصف بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة حيث يقول : « البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها » وكان يرى أن التتبع لغريب الكلام طمعاً في نيل البلاغة هو العي الأكبر ، وينصح الكتاب باتباع ما سهل من الألفاظ مع التجنب للألفاظ السفلة .

وقد ذاعت طريقة ابن المقفع وعبد الحميد في توخي السهولة وسلامة التعبير مع العناية بإجادة المعنى بين الكتاب من أهل زمانيهما ومن بعدهما ؛ وإنما صعبت عبارة ابن المقفع في الأدبين الصغير والكبير ونحوهما لأنه ساقها مساق الفلسفة . ويغلب على أساليبه فيهما القياس المنطقي وأفكار الفلاسفة الدقيقة التي قلبا تظهر للقارىء إلا بعد السكد ، ويمتاز عبد الحميد — وإن لم يكن ابن المقفع دونه في البلاغة — بوضعه الأنظمة للرسائل الديوانية .

## مؤرخ الحضارة الإسلامية

## ( ١ )

يعد ابن خلدون من أعلام الفكر الإسلامى ، وإمام المؤرخين العرب منذ القرن الثامن الهجرى حتى اليوم وكان تراثه خير أستاذ تتلمذ عليه أعلام البيان فى عصر النهضة الأدبية الحديثة فى مصر وسائر بلاد الشرق العربى . .

ومقدمة ابن خلدون تراث جليل خالد يمتاز بالجدة والابتكار ، وهى تسجل منهاجا جديدا فى فهم التاريخ وتحليله ونقده ، وفى فهم الظواهر الاجتماعية وتعليلها . . وموضوع المقدمة ، كما يصفه ابن خلدون نفسه هو « العمران البشرى والاجتماع الإنسانى » . وقد تحدث ابن خلدون فيها عن : العمران البشرى على الجملة وأصنافه ، والعمران البدوى ، وذكر القبائل والأمم البربرية ، وتحدث عن الدول والخلافة والملك ، وذكر المراتب السلطانية وعن العمران الحضرى ، والبلدان والامصار ، وعن الصنائع والمعاش والسكسب ووجوهه . وعن العلوم واكتسابها وتعليلها . .

وبحوث ابن خلدون فى المقدمة هى تمهيد لدراسة التاريخ وفهمه ، وهى بحوث جديدة كل الجدة ، وان كانت آراء الفارابى فى المدينة الفاضلة . واخوان الصفاء فى رسائلهم ، تعد تمهيدا موجزا صغيرا لبحوث ابن خلدون : كبحوث الفارابى عن حاجة الإنسان إلى الاجتماع ، وعن نشأة القرى والمدن ، وكقسيم اخوان الصفا للعلوم والصنائع وبحثهم عن تأثير طبيعة البلدان فى الاخلاق . . ولكن بحوث الفارابى واخوان الصفاء لها منهجها الفلسفى ، حيث يتناول ابن خلدون هذه البحوث والموضوعات من الجانب الاجتماعى .

وتشمل بحوث ابن خلدون فى المقدمة جوانب من علوم الاجتماع وفلسفة التاريخ والاقتصاد السياسى .

وقد عني المستشرقون عناية خاصة بالجانب الاجتماعي من تفكير ابن خلدون وتراثه ، وعد « فون كريمير » المستشرق النمساوي « ابن خلدون » مؤرخا للحضارة الإسلامية ، وعده دي بوير فيلسوف ، ولكن الاتجاه العام كان إلى دراسة فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، التي تسمى اليوم بحوثه فيها بعلم الاجتماع ، الذي سبق فيه أوجست كونت ، وفيكو ، ومكيافلي من أعلام الاجتماع في أوروبا . ولقد سبق مكيافيلي ومونتسكيو وفيكو إلى الدرس النقدي للتاريخ ، كما سبق ماركس وسواه إلى نظريات علم الاقتصاد السياسي . . والمقدمة تسبق كتاب مكيافيلي الذائع « الأمير » بأكثر من قرن من الزمان وهي أوسع دراسة ، وأرحب أفقا ، وأغزر مادة ، على الرغم من ان المقدمة قد ألفت عام ١٣٧٧ م ، كتاب الأمير ألف عام ١٥١٣ م

وقد نشرت المقدمة في مصر عام ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٨ م ، وفي بيروت عام ١٨٧٩ وفي باريس عام ١٨٥٨ م بإشراف المستشرق كاترمير ، وظهرت ترجمتها الفرنسية لدى سلان بين عامي ١٨٦٣ ، ١٨٦٨ في ثلاثة مجلدات وترجمت إلى التركية بعناية بيرى زاده المتوفى عام ١١٦٢ هـ - ١٧٤٩ م . وترجمت فصول منها إلى الإيطالية والانجليزية واللاتينية والروسية . .

وفي آخر تاريخ ابن خلدون تعريف كتبه ابن خلدون بنفسه حتى مستهل عام ٧٩٧ هـ ، وهو بمثابة ذيل لتاريخه ويعد مفتاح شخصية ابن خلدون ، ومرجعا لكل من كتب عنه ، ومن التعريف نسخة كاملة مستقلة في دار الكتب المصرية ( ١٠٩ م تاريخ ) . تصل حواشيها إلى نهاية عام ٧٠٧ هـ أي قبل وفاته بشهور قلائل . .

## ( ٢ )

في عيد الفطر من عام ٧٧٦ هـ - ١٣٧٤ م قدم ولي الدين عبد الرحمن ابن محمد بن خلدون ، مدينة تلمسان والمغرب . وكانت شهرته العلمية والأدبية والسياسية إذ ذاك تبسقه إلى كل مكان .



وأراد ابن خلدون أن يخلد في هذه المدينة إلى الدرس والتأليف ، وأن يستريح من أعباء السياسة وتعبها ، ولكن أمير تلمسان أراد من ابن خلدون أن يسمى لتوطيد عرشه بين القبائل المغربية ، فتظاهر بالقبول وخرج من تلمسان ، وذهب إلى أحياء بنى عريف فنزل لديهم ، وقدمت أسرته من تلمسان حيث أقام ابن خلدون في هذه المنطقة النائية مدى أربعة أعوام . بدأ فيها بتأليف كتابه التاريخي المشهور « بتاريخ ابن خلدون » . ويسمى « العبر وديوان المبتدأ » .. وكان ابن خلدون يومئذ في الخامسة والأربعين من عمره ، وكان مكتمل الثقافة ، كثير التجارب ، ناضج التفكير ، عميق العقلية ، دارسا لأحوال المغرب وسياسته وتاريخه ودوله وملوكه ، ولحياه القبائل البربرية وطبائعها وتقاليدها ،

وفي هذه العزلة النائية كتب ابن خلدون مقدمة تاريخه حيث جاد فكره بأفكار وبحوث وآراء جديدة . وبنظريات خالدة لاتزال الجامعات وشتى البيئات العلمية تعكف على دراستها وبحثها .. وقد انتهى ابن خلدون من كتابة مقدمته في منتصف عام ٧٧٩ هـ ١٣٧٧ م ، حيث أمضى خمسة شهور في تدوينها ، ثم نقحها وهذبها بعد ذلك عدة مرات ، ويقول عنها ابن خلدون في آخر الجزء السابع من تاريخه : « وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب الذي اهتديت إليه في تلك الخلوة ، فسالت فيها شأيب الكلام والمعاني على الفكر ، حتى امتنخت زبدتها ، وتألفت نتائجها » .

ثم شرع ابن خلدون بعد اتمام المقدمة في كتابة تاريخه ، فكتب تاريخ العرب والبربر وزناته ، وهو المدون في الأقسام الأولى والأخيرة من « العبر » ، وكان منهج ابن خلدون كتابة تاريخ المغرب والدول البربرية . ويشرح ذلك في المقدمة فيقول : « وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنتني منه في هذا القطر المغربي إما صريحا مندرجا في أخباره أو تلويحا ، لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأمه وذاكر ممالكه ، دون ما سواه من الأقطار ، لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأمه ، وإن الأخبار المتناقلة لاتوفى كنه

ما أريده منه . . ولكنه بعد أن أمضى شوطا في كتابة تاريخه رأى أن يكون كتابه شاملا لتاريخ البشر منذ بدء الخليقة ، لذلك آثر أن يعود إلى تونس ليستكمل المراجع اللازمة له بعد أن كان قد أكمل المقدمة وكتابة الأقسام المتعلقة بتاريخ العرب والبربر .

وكتب ابن خلدون إلى سلطان تونس يستأذنه في العفو عنه والاذن بعودته إلى وطنه لإكمال كتابه التاريخي فرد السلطان عليه بالصفح والقبول ، ودعاه إلى القدوم إلى تونس ، فغادر ابن خلدون أحياء عريف في شهر رجب عام ٧٨٠ هـ ، ولقى العالم الجليل أبا العباس سلطان تونس بظاهر سوسة ، حيث بالغ في اكرامه وأصدر أوامره إلى رجال الدولة بتوفير ما يلزم له ولأسرته من المسكن والمعاش . . .

ودخل ابن خلدون وطنه بعد أن غاب عنه شابا دون العشرين ، عام ٧٥٣ هـ ، وأقام في دعة وهدوء عاكفا على الدرس والبحث ،

وعكف المؤرخ التونسي الكبير على اتمام مؤلفه وتهذيبه وتنقيحه ، وأتم منه نسخة أهداها إلى السلطان أبي العباس في أوائل عام ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م وتشمل المقدمة وأخبار البربر وزناة وتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده ، وتاريخ الدول الإسلامية المختلفة إلى عصر المؤرخ واسترجاع السلطان أبي العباس لتوزر عام ٧٨٣ هـ .

وأنشد ابن خلدون السلطان وهو يقدم إليه موسوعته التاريخية الكبرى قصيدة لامية طويلة نوه فيها بالسلطان وأعماله وانتصاراته .

وبعد قليل استأذن ابن خلدون في السفر للحج ، فأذن له ، وودعه أصدقاؤه وتلاميذه ومريدوه وهو يركب البحر إلى المشرق في منتصف شعبان عام ٧٨٤ هـ - أكتوبر ١٣٨٢ م . . وفي عيد الفطر من العام نفسه وصل ابن خلدون الإسكندرية ، فنزل فيها ، وتوجه منها إلى القاهرة فوصلها في أول ذي القعدة عام ٧٨٤ هـ - نوفمبر ١٣٨٢ هـ ، بعد دخول ابن بطوطة الرحالة

إليها بنحو ستين عاما ، إذ كانت وفادة ابن بطوطة على القاهرة عام ٨٢٦ هـ - ١٣٢٦ م في عهد الناصر بن قلاوون .

وأقام ابن خلدون في القاهرة ، واثال عليه طلبه العلم بها يلتمسون منه الإفادة ، واستوطن القاهرة وتصدر للتدريس بها بالجامع الأزهر ، وكان سلطان مصر إذ ذاك هو الظاهر برقوق الذي ولي حكم مصر في أواخر رمضان عام ٧٨٤ هـ ، وتولى بعد ذلك ابن خلدون التدريس بالمدرسة القمحية بجوار جامع عمرو ، وهى من مدارس المالكية المشهورة في مصر ، وبعد قليل عين قاضيا لقضاة المالكية في مصر في أواخر جمادى الأولى عام ٧٨٦ هـ .

وكان سلطان تونس قد حجز أسرة المؤرخ في تونس حتى يعود ابن خلدون إلى موطنه ، فتوسل إلى السلطان الظاهر أن يشفع له لديه في تخلية سبيل أسرته ففعل . وأطلق سراح أسرته ، وركبت سفينة إلى مصر ، ولكن السفينة غرقت في البحر الأبيض وغرق أهله فيها ، ووصله في القاهرة نبأ هذه الفاجعة الآليمة ، فزن حزنا شديدا .

وفي عام ٧٨٩ هـ سافر إلى الحج ، ثم عاد إلى القاهرة في جمادى الأولى سنة ٧٩٠ هـ .

وفي أثناء إقامة ابن خلدون بالقاهرة أخذ يهذب وينقح في المقدمة والتاريخ وزاد في حوادث التاريخ حتى بلغ بها نهاية القرن الثامن الهجرى بعد أن كان قد بلغ بها في تونس حتى عام ٧٨٣ هـ .. ومن الفصول الجديدة التى كتبها في مصر : خواص دول المماليك المصرية ، ونشأة التتار ، وسوى ذلك من بحوث.

### ( ٣ )

وقد شغلت المقدمة وحدها أذهان العلماء والمفكرين طوال عصور التاريخ ونالت من الاهتمام والعناية أضعاف أضعاف ما ناله تاريخه الكبير . ولا عجب ، فقد كان نظر ابن خلدون إلى التاريخ سابقا لزمه ، وقد وضع (١٠)

بمقدمته أصول علم التاريخ ، فكانت هي الأثر الوحيد في نوعه في التراث العربي الإسلامي .

وقد بحث ابن خلدون في المقدمة في أثر الجو والبيئة والغذاء في تكوين طبائع الناس وعقولهم وأخلاقهم ، وفي الاجتماع البشري وشكله ونموه وفنائه ، وفي العلوم الإسلامية ونشأتها وارتقائها .

وقد طبعت المقدمة لأول مرة في مصر عام ١٣٧٤ هـ في مطبعة بولاق بتصحيح الشيخ نصر المحوريني ، وفي عام ١٣٨٤ هـ تم طبع التاريخ بأكمله في سبعة مجلدات كبار ، ورأى التاريخ النور لأول مرة في تاريخ الشرق العربي الثقافي .

وكان المستشرقون قد سبقوا فنشروا مقتطفات من مقدمة ابن خلدون وتاريخه ، وكان من بينهم المستشرق الفرنسي « سلفستري دوساسي » الذي أخرج عام ١٨٠٦ م فصولا من المقدمة والتاريخ ، وفي عام ١٨٥٨ نشر « كاتمر » المقدمة كاملة بنصها العربي ، ونشر « دوسلان » بعد ذلك ترجمة للمقدمة باللغة الفرنسية ، وعندئذ ظهر ابن خلدون كما يقول عنان في التفكير الغربي في روعة ابتكاره ، وظهرت قيمة ذلك التراث الباهر الذي غمره النسيان مدى عصور .

وقد طبعت المقدمة والتاريخ في مصر عدة طبعات ، وآخر طبعات المقدمة طبعة حديثة يتولى تحقيقها الدكتور علي عبد الواحد وافي ، وقد ظهر منها الجزء الأول .

ويذهب سلامة موسى إلى أن ابن خلدون قد سرق كل ما كتبه إخوان الصفاء وعزاه إلى نفسه .

ويرد عليه أبو القاسم محمد كرو مفندا هذا الرأي .

ان ابن خلدون بتاريخه ، وبمقدمته خاصة ، قد احتل الذروة في التفكير الإسلامي ، وقد وضعته مقدمته بين أعلام العلماء الخالدين في تاريخ الإنسانية الفكرية ؛ وقد نال من عناية العلماء والمفكرين ما لم ينله مؤرخ إسلامي ؛ ولاتزال نظرياته وآراؤه موضع اهتمام الباحثين والمؤرخين والفلاسفة إلى اليوم .

( ٤ )

وابن خلدون هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ، ينتهى نسبه إلى جده الأعلى ابن خلدون ، وأسرته من بنى وائل ، وقيل انها هاجرت إلى الأندلس فى القرن الثالث .

ولد بتونس فى أول رمضان عام ٧٣٢ هـ ٢٧ مايو ١٣٣٢ م ، من أسرة أندلسية اشتهرت بالعلم والأدب والرياسة ، وكان نزوحها من الأندلس فى أواسط القرن السابع الهجرى من أشبيلية ونشأ عبد الرحمن فى تونس فى ظلال دولة الحفصيين ودولة بنى مرين بالمغرب وكان منهم السلطان أبو الحسن المرينى « ٧٣١ - ٧٥٢ هـ » ، وابنه أبو عنان ( ٧٥٢ - ٧٥٨ هـ ) ، ثم أبو سالم ابن أبى الحسن المرينى ( ٧٥٨ - ٧٦٢ هـ ) ، وأكمل دراسته الأولى على والده ، وعلى بعض الأساتذة المشهورين ، ولكن الوباء الكبير الذى اجتاح البلاد قضى على أسرته فى المغرب ، فحن لذلك حزنا شديدا ، واشتغل بالكتابة ، فدعاه السلطان أبو إسحاق ملك تونس عام ٧٥١ هـ ليتولى له كتابة « العلامة » وهى التوقيع على المراسيم السلطانية والمخاطبات الرسمية باسم السلطان ، وقربه إليه ، ولكن ابن خلدون لم يلبث أن ترك أبا إسحاق واتصل بالسلطان أبى عنان المرينى ملك المغرب الأقصى عام ٧٥٥ هـ ، فتولى له الكتابة والتوقيع حينما ، ثم اتهم بالتآمر على السلطان فسجن ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة السلطان أبى عثمان ، ورد إلى وظائفه ، ثم تولى كتابة السر والإنشاء وخطة المظالم للسلطان أبى سالم ابن أبى الحسن المرينى ، فأظهر كفاية وإخلاصا ، ولاذ بالسلطان أبى سالم فى هذه الفترة ملك الأندلس محمد بن الأحمر ووزيره لسان الدين ابن الخطيب ، بعد أن اغتصب العرش منه ، فاتصلت رابطة الصداقة والأدب بين ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب من ذلك الحين ، ثم توفى السلطان أبو سالم سنة ٧٦٢ هـ ولم يلبث ملك الأندلس أن استر عرشه ، فرحل ابن خلدون إلى الأندلس عام ٧٦٤ هـ ، وأقام فى العاصمة غرناطة مشمو لا بعطف ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب ، وأرسله فى سفارة رسمية إلى ملك قشتالة باشبيلية ، فقام بها خير قيام ، بيد أن فتور العلاقة بينه وبين

ابن الخطيب كان باعثاً له على الخروج من الأندلس عام ٧٦٦ هـ حيث تولى الحجابة للأمير « بجاية » ولكن عرش هذا الأمير لم يلبث أن اغتصبه معتصب ، فظل ابن خلدون يتنقل من خدمة أمير إلى خدمة أمير ، حتى حيث كنت حوله المؤامرات ففر إلى الأندلس مهاجراً إليها مرة أخرى عام ٧٧٦ هـ ، ولكن فراره إلى غرناطة وهرب ابن الخطيب منها إلى المغرب الأقصى كان مثاراً لمشكلات سياسية بين ملك بني الأحمر في غرناطة وبنى مرين في فاس بالمغرب الأقصى ، وقد انتهت الأحداث بقتل ابن الخطيب في فاس وبطرد ابن خلدون من الأندلس .

عاد ابن خلدون إلى المغرب الأقصى ، ملتحجاً إلى أحياء بني عريف بتلمسان ، حيث أقام يؤلف كتابه التاريخي الكبير ، وهو كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر » ، كما أسلفنا ، ثم عاد إلى وطنه تونس عام ٧٨٠ هـ ، فأنتم كتابه ورفعته إلى سلطان تونس أبي العباس الحفصي عام ٧٨٣ هـ ، وقربه السلطان إليه ، ولكن الرشايات عادت تحوك حوله الدسائس من جديد ، فعزم على الرحلة إلى المشرق ، مستأذناً من السلطان في السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج ، فأذن له وركب ابن خلدون سفينة أقلته إلى الاسكندرية فنزل بها وسافر إلى القاهرة ، فوصلها عام ٧٨٤ هـ ، وأخذ ابن خلدون يلقى دروسه في مذهب مالك في الأزهر الشريف ، واتصل بيرقوق رأس دولة « المماليك البرجية » الذي حكم مصر سبعة عشر عاماً ( ٧٨٤ — ٨٠١ هـ ) وولاه التدريس في المدرسة القمحية المالكية بجوار جامع عمرو ، وتولى قضاء المالكية أيضاً ، فأرسل إلى بلاد المغرب يستقدم أسرته ، ولكنها غرقت بها السفينة التي كانت فيها ، ولم ينج أحد ، فعظم حزن ابن خلدون لذلك كما أسلفنا .

كان وجود ابن خلدون في مصر وولايته لمنصب قضاء المالكية فيها ، مثار دسائس وأحقاد بينه وبين علماء عصره الذين كانوا يتطلعون لهذا

المنصب ، واضطرب الأفق حوله ، وعزل عن القضاء ، فاستأذن من برقوق في الحج فأذن له ، وعاد بعد الحج فعينه برقوق أستاذا في المدرسة الصرغتمشية - شمال جامع ابن طولون ، ثم عينه شيخا لحانقاه ببيرس ، وانقطع إلى التدريس والتعليم ، يوطد الصلات السياسية والعلمية بين مصر والمغرب ، حتى أعاده برقوق إلى منصب القضاء ، وظل فيه إلى أن توفي برقوق عام ٨٠١ هـ وتولى بعده ابنه فرج فعزله عن القضاء .

في هذه الاثناء كان جيش تيمورلنك يغزو الشرق ، ويعيث في بلاد فسادا ، ودخل الشام ، فخرج فرج للقائه ، وخرج معه ابن خلدون ، ولكن فرج رجع مسرعا ليقضى على ثورة سياسية قامت في مصر ، وأقام الجيش حيث هو ، وأقام مع الجيش ابن خلدون ، ثم انتصر جيش تيمورلنك ، فسار ابن خلدون إلى معسكر الظافرين يفاوض في شروط الصلح ، وفي تسليم دمشق بعد أن أنهكها الحصار . . ولما عاد ابن خلدون إلى مصر أعيد إلى القضاء لثالث مرة ، ثم عزل عام ٨٠٤ هـ ، واستمر بين ولاية القضاء المالكي وعزل منه ، حتى تولاها لسادس مرة عام ٨٠٨ هـ ، فلبث فيه ستة أسابيع توفي بعدها في ٢٦ رمضان عام ٨٠٨ هـ ، ١٦ مارس عام ١٤٠٦ ودفن في مقبرة الصوفية في العباسية خارج باب النصر ، بالقاهرة .

ولابن خلدون كتابه التاريخي العظيم ، ومقدمته الرائعة الخالدة ، وقد انقطع عام ٧٧٧ هـ لتأليف تاريخه في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، وأقام سنين يكتب في مقدمته التي أتمها عام ٧٧٩ هـ ، وفي بعض فصول الكتاب التاريخية ، ثم كتب فصولا أخرى منه في تونس وفي القاهرة ، وانتهى أخيرا من الكتاب في القاهرة عام ٧٩٧ هـ ، وسماه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » وقسمه إلى مقدمة وثلاثة كتب ، وأشار في المقدمة إلى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه ونقد أخطاء المؤرخين وأغاليطهم ، أما الكتاب الأول فخاص بالعمران وما يعرض فيه من

العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ، وما لذلك من علل وأسباب ، والكتاب الثانى فى أخبار العرب وأحيائهم ودولهم من بدء التاريخ إلى عصره ، مشيراً إلى الدول التى عاصرتهم ، وسرد فى الثالث أخبار البربر ودولهم وملوكهم وقبائلهم ، وهذا القسم الأخير هو أهم أقسام الكتاب ، وقد أهدى ابن خلدون نسخة كاملة من الكتاب لسلطان المغرب الاقصى أبى فارس المرينى ، الذى تولى حكم المغرب ثلاثة أعوام ( ٧٩٦ - ٧٩٧ هـ ) ، والكتاب سبعة مجلدات ، والمجلد الأول منها فى فلسفة التاريخ والاجتماع وهو المشهور بالمقدمة ، والستة الباقية فى تاريخ العرب والعجم والبربر .

وقد خلدت هذه المقدمة النفيسة ابن خلدون ، ورفعتة إلى مصاف الفلاسفة الملمين ، وبوأته فى تاريخ التراث الفكرى الإسلامى مكاناً رفيعاً ، ويعجب علماء الغرب وفلاسفته بالمقدمة ، ويرون أن ابن خلدون بها يعد المبتكر لعلم الاجتماع ، وواضع أسس العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصاد الاجتماعى والسياسى وفلسفة التاريخ والقانون العام ، وقد عرف الغربيون فضل ابن خلدون قبل أن يعرفه الشرقيون ، فترجموا المقدمة إلى لغاتهم ، وطبعت فى القاهرة لأول مرة منذ نحو حوالى تسعين عاماً ، وكان لابن خلدون وأسلوبه فى المقدمة أثر واضح فى أساليب الكتاب والأدباء فى مصر منذ ذلك الحين ، وفى عام ١٩٣٢ أحيا جماعة من أدباء مصر ذكرى ابن خلدون ، فكتبوا المقالات والبحوث والدراسات عنه ونشر الأستاذ محمد عبد الله عنان كتابه عنه .

ولا شك أن المقدمة أثر لحياة ابن خلدون وثقافته وتجاربه وشخصيته التى هى مثل للمفكر والمؤرخ السياسى والرجل السياسى أيضاً ، إذ أن تجاربه وصلاته السياسية بعروش دول المغرب . وتولى أعظم المناصب فيها ، وتقلبه شباباً ورجلاً وكهلاً فى الاحداث السياسية ، كل هذا خلق منه سياسياً داهية ،



وهو أيضا مما عاون الرجل على إخراج مقدمته النفيسة ، والمسائل التي عالجها ابن خلدون في المقدمة ذات دقة متناهية ، ولم يسبق لأحد من علماء المسلمين أن تناولها بالتأليف على هذا النمط والاسلوب ، وهو ينه في المقدمة على أن الكلام فيها « مستحدث جديد أدى إليه البحث والتفكير » وأنه « ليس من علم الخطابة المنطقية ولا من علم السياسة المدنية » وأنه « علم مستقل » ابتكره ابن خلدون دون أن يطلع على تأليف في معناه ، وإن كان بعض الإيجديات التي ذكرها في المقدمة قد تجرى لأهل العلوم بالعرض في براهين علومهم ، مثل ما يذكره الحكماء في اثبات النبوة من أن البشر متفاوتون في وجودهم فيحتاجون فيه إلى الوازع والحاكم، ومثل ما يذكر في أصول الفقه من أن الناس يحتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون والاجتماع وتبيان العبارات . ومثل ما ورد في حكم الحكماء وكتب الفلاسفة كالكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة ورسائل ابن المقفع وسراج الملوك للطرطوشي . . فقد حوم فيه وبوبه على أبواب تشابه أبواب المقدمة ولكنه لم يستوف المسائل ، بل يبوب الباب للمسألة فيستكثر من الأحاديث والحكم بدون تحقيق ، فهو نقل وترغيب أشبه بالمواعظ ، وكان حوم على الغرض فلم يدركه . . وابن خلدون يؤكد أن المسائل التي ورد ذكرها في المقدمة قد ألهمه الله إياها الهاما ، فهو الذي نهج للباحثين فيها السبيل ، ووضع لهم الطريق .

ويذكر ابن خلدون في مقدمته التاريخ فيصفه بأنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض له من أحوال وما ينشأ عنه من ملك وما ينتحله البشر من صناعات ومعارف ، ويحدد في موضع آخر بأنه « ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل » فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال فهو أساس ثقافة المؤرخ ، وإن كان المسعودي وسواه يفرد بالتأليف .

ويشرح ابن خلدون في مقدمته نظريات عديدة ، منها أن الإنسان مدني

بالطبع ، أى لا بد له من الاجتماع الذى هو المدنية فى اصطلاحهم ، وأن  
الترف يقضى — عندما يستشرى فى جسم الأمة — عليها ، ويسير بالدولة  
إلى الهرم والشيخوخة ، وأن العسف مضر بالملك منفسد له ، وإن الظلم مؤذن  
بخراب العمران ، وأن الهرم إذا حل بالدولة لا يرتفع إلا إذا جدت عوامل  
أخرى تدعو إلى تجديد الدولة ، ويذكر كذلك أن الحضارة غاية العمران  
ومؤذنة بفساده ، وأن العواصم تخرب بخراب الدولة ، وسوى ذلك من  
عديد النظريات .

وابن خلدون يشرح ويفسر لنا حقيقة النبوة وكيفية نزول الوحى على  
الرسل والأنبياء ، ويفرق بين ذلك وبين الرؤى والأحلام ، وكلامه فى ذلك  
يعد أساس النظرية الحديثة لفرويد . . ولابن خلدون رأى فى العرب عجيب ،  
فهو يذهب إلى أنهم لا يتغلبون إلا على البسائط ، وإذا تغلبوا على أوطان  
أسرع إليها الفساد والخراب ، وإذا حصل لهم الملك فإنما يحصل لهم بصفة  
دينية ، وهم عنده أبعد الأمم عن سياسة الملك ، وهم أبعد الناس عن الصنائع ،  
ومبانيهم يسرع إليها الفساد ، وحملة العلم فى الإسلام عجم ، وهذا رأى  
الغريب حير الباحثين فى تراث ابن خلدون الفسكورى ، فعللوه بأسباب مختلفة  
متناقضة ، أما نحن فنعلله بأحد أمرين :

الأول إن ابن خلدون يريد بالعرب البدو فى أى مكان كما عبر هو عنهم  
بهذا أحيانا ، لا عرب الجزيرة العربية خاصة ، وهذا الرى محتاج إلى إثبات السر  
فى ترجيحنا هذا المعنى دون المعنى الآخر للفظه عرب . . والثانى أن ابن  
خلدون يقصد العرب ويريدهم ويتكلم عنهم ، ومن الملحوظ من عبر التاريخ  
أن العرب فى جاهليتهم وحين تحللهم من الدين بعد الإسلام كانت أحوالهم  
كما يصفها ابن خلدون ، فكأنما ابن خلدون يقصد بهذه الفصول ذكر طبيعة  
العرب حين ضعف الدين من نفوسهم ، وكأنه يريد التعميم فى أحوالهم ، فإن  
العرب حين تمسكهم بإسلامهم وشريعتهم ، كانوا كما نعرف عدلا وسياسة  
وإصلاحا ونبل حكم ، وفى هذا البحث يذكر ابن خلدون أن أهل البادية

مغلوبون لأهل الأمصار . ويذكر ابن خلدون أحوال الموالي والمصطنعين وما يعرض للدول من الحرج على السلطان والاستبداد به ومشاركته في نفوذه وألقابه . وآراء ابن خلدون في الفصل الخامس في المقدمة عن المعاش ووجوهه والسكسب والصنائع مباحث قيمة في الاقتصاد السياسي والاجتماعي ، وقد اقتبس منها كارل ماركس في كتابه « رأس المال » ومن آراء ابن خلدون في المقدمة :

١ — أن النقد التاريخي هو تطبيق طبائع العمران على التاريخ وحوادثه . فما جاز لنا قبوله من التاريخ قبلناه ، وما لا يجوز فيه رفضناه .

٢ — أن أصول التوحيد هي عقائد متلقاة عن الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعويل عليه . وهنا يذكر ابن خلدون أن العقل معزول عن الشرع لأن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نطاقها عن مدارك الأنظار العقلية ، فهي فوقها محيطتها بها . لاستمدادها من الأنوار الإلهية ، ويأخذ في ذم الفلسفة وتخليفها ، ولا شك أن ابن خلدون كان بحاجة إلى تأكيد ذلك لبغض المجتمع الإسلامي في عصره للفلسفة وعلومها وأصحابها والعنف في البطش بكل من عرف عنه أنه يحب لها ، ولا نخال ابن خلدون سوى فيلسوف ملهم . فأفكاره في المقدمة أفكار فلسفة عميقة ، وكذلك دراسته للفلسفة وعلومها وتاريخ نشأتها تدل على أنه من أنصارها ومحبيها وعارف قدرها ، ويبدو أنه كان يقصد التويه على عامة الناس وجمهور العلماء حتى لا يتهم بالإلحاد والكفر ، ويعرض نفسه لمحن لا داعي لها ، بل إن المقدمة نفسها لون من ألوان الفلسفة في عصرنا الراهن ، ولا شك أن ابن خلدون يستحق تقدير المفكرين والتاريخ والإنسانية جمعاء .

( ٥ )

ويبدأ ابن خلدون مقدمته فيقول : « يقول العبد الفقير إلى الله تعالى ، الغني بلطفه ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، وفقه الله » .

ثم يقول : « أما بعد ، فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال ، وتشهد إليه الركائب والرحال ، وتسمو إلى معرفته السوق والأغفال ، وتتنافس فيه الملوك والأقوال ، وتتساوى في فهمه العلماء والجهال . »  
وبهذا الأسلوب المسجوع الموقع يستمر ابن خلدون في التنويه بعلم التاريخ ، وقد كان لهذا الأسلوب أثره في أوائل عهد النهضة الأدبية في مصر والعالم العربي .

ثم يذكر ابن خلدون أنه قسم كتابه إلى :

١ — المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والامام بمخاطب المؤرخين .

٢ — الكتاب الأول في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب .

٣ — الكتاب الثاني في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة إلى هذا العهد ، وفيه من الاملاخ ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم مثل النبط والسياريين والفرس وبنى إسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والافرنجة .

٤ — الكتاب الثالث في أخبار البربر ومواليهم من زناته وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان بدول المغرب خاصة من الملك والدول .

إن « المقدمة » من أهم ما وصل إلينا من التراث العربي الثقافي الأصيل ، وهي تحفة فريدة مبتكرة لا مثيل لها في الآثار الإسلامية القديمة . . وابن خلدون بمقدمته يحتل مكانة بارزة في التاريخ الإسلامي الفكري والعقلي .

ونحن مدينون لابن خلدون ولنظرياته بالكثير ، وقد رفع ابن خلدون بكتاباته مكانة العقل العربي إلى الذروة ، ولا يزال تراثه موضع الفخر والاعجاب من كل الباحثين والدارسين .

بين جمال الدين ومحمد عبده

## ( ١ )

كان الأفغانى ومحمد عبده أعظم مصلحين ظهرا فى القرن التاسع عشر الميلادى ، حملا رسالة الإصلاح الدينى والفكرى وكونا مدرسة أدبية وسياسية كان لها أعظم الأثر فى تاريخ الشرق الإسلامى .

وعن هذه المدرسة انبعثت روح التحرر والرغبة فى التقدم ونضال الاستعمار فى جميع البلاد الشرقية والعربية .

وترجع صلة محمد عبده بجمال الدين الأفغانى إلى أول المحرم عام ١٢٧٠ هـ ، حيث كان الأفغانى فى زيارة قصيرة للقاهرة فى طريقه إلى الآستانة منفيا بيد الإنجليز من الهند ، وكان محمد عبده إذ ذاك طالبا بالأزهر .

وتردد محمد عبده على بيت جمال الدين ، وتتلذذ عليه وعلى مائدة علمه وفضله ؛ وبعد أيام قصيرة سافر جمال الدين إلى الآستانة ، وودعه محمد عبده وداعا حارا ، وفى الآستانة نال جمال الدين تقديرا كبيرا ، وعين عضوا فى مجلس المعارف هناك ، ولكنه شعر بالدسائس والوشايات تحاك من حوله فعاد إلى القاهرة مرة أخرى فى أول المحرم ١٢٨٨ م ، فعاد محمد عبده إلى التلمذة عليه والإفادة من ثقافته .

وعرف محمد عبده من أستاذه جمال الدين أن الاستعمار الغربى وبال على الإسلام والمسلمين ، وأنه يجب محاربة الديكتاتورية الملكية ، والفساد السياسى ؛ وعن طريقه علم أن الأدب يجب أن يكون فى خدمة الشعب وتحريره ، وأنه يجب أن يتحرر من قيود الصناعة اللفظية ، وأن المعنى لا اللفظ هو سر كل بلاغة ، وتعود الكتابة الدينية والوطنية فى الصحف والمجلات ، وبدأ يهتم بمطالعة مصادر الثقافة الإسلامية والأدبية ، ويطالع الكتب المترجمة ، ويسعى مع إخوانه من تلامذة جمال الدين فى إصلاح الأزهر الشريف وفى الإلحاح فى طلب الحكم النيابى والديمقراطية السياسية .

وظفر محمد عبده بشهادة العالمية عام ١٢٩٤ هـ ١٨٧٧ م وأصبح مدرسا بالأزهر ودار العلوم ومدرسة الألسن ، وبدأ يكون جيلا جديداً من تلامذته ، ينفخ فيهم روح أستاذه جمال الدين .

### ( ٢ )

وفي الخامس والعشرين من يونيو عام ١٨٧٩ م عزل إسماعيل وتولى مكانه ابنه توفيق ، وقد بدأ حكمه بنفى جمال الدين من مصر ، وإقالة محمد عبده من وظائفه العلمية ، وتحديد إقامته في قريته « محلة نصر » ، وذلك في الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٨٧٩ م — أواسط رمضان عام ١٢٩٦ هـ ، خوفاً من النهضة الوطنية التي يتزعمها ، ويدعوان إليها ، وقبل أن يغادر الأفغان أرض مصر قال : « إني تركت في أرض مصر الشيخ محمد عبده يتم ما بدأت به » . وبعد شهر عفا توفيق عن محمد عبده ، وأسند إليه رياض باشا التحرير في الوقائع ، فاختار معه سعد زغلول وجماعة من زملائه من تلامذة جمال الدين ؛ وكون محمد عبده عن طريق الوقائع مدرسة صحفية نزيهة غايتها خدمة الشعب وتحريره فكرياً وقومياً من قيود الاستعباد والاستبداد والرجعية والجهل والجمود والتأخر .

وقامت الثورة العربية ، وكان محمد عبده من أبرز زعمائها ، وكان جمال الدين آنذاك في الهند ، فاعتقلته بريطانيا حتى لا يتصل بزعماء الثورة ، وانتهت الحركة العربية بالفشل والاحتلال البريطاني لمصر ، وقبض على محمد عبده وسجن وحوكم ، وحكم عليه بالنفي ثلاث سنوات ، فاختار سوريا منفى له . وأفرجت بريطانيا عن جمال الدين وسافر من الهند إلى لندن فباريس ، وهناك استدعى جمال الدين محمد عبده من بيروت ليقم معه في عاصمة فرنسا .

### ( ٣ )

وفي باريس أخذ الإمامان يجهدان من أجل مستقبل الشرق الإسلامي

وتحرره ، ويعملان ليعود للإسلام مجده وألفا جمعية «العروة الوثقى» عام ١٨٨٤  
ثم أصدرتا صحيفة باسم «العروة الوثقى» للجهاد في سبيل الشرق والإسلام .  
وخلق الوعي السياسى المستنير فى الشعوب الإسلامية « ومناهضة الحكم  
الديكتاتورى » والعمل على إحياء الأخوة الإسلامية ، وعلى قيام حكم  
ديمقراطى شورى بين الناس .

وصدر العدد الأول من العروة الوثقى فى ٥ جمادى الأولى ١٣٠١ هـ -  
١٣ مارس ١٨٨٤ م ، وكنه حرب على الاستعمار الغربى فى بلاد المسلمين ،  
ودعوة إلى حكومة إسلامية موحدة أو حكومات إسلامية متآخية متحدة  
المناهج والأهداف . والأفكار يرتبط بعضها ببعض بروابط الود والائلاء  
وحب السلام .

وفى يوليو عام ١٨٨٤ أوفد جمال الدين الأستاذ الامام محمد عبده إلى  
لندن لمفاوضة السادة الانجليز فى القضية المصرية ودعوة إنجلترا إلى الجلاء  
عن مصر وترك السودان للسودان ، وأدى محمد عبده مهمته خير أداء ،  
وأعلن فى عزم وقوة أن مصر ستحارب الاستعمار الانجليزى بكل ما أوتيت  
من قوة .

وعاد الامام إلى باريس ليشهد توقف مجلة العروة الوثقى التى حاربها  
الاستعمار والانجليز حربا لا هوادة فيها ، وذلك بعد العدد الثامن عشر  
الصادر فى ٢٦ من ذى الحجة عام ١٣٠١ هـ - ١٦ أكتوبر عام ١٨٨٤ م .

وعاد جمال الدين فأوفد الإمام إلى السودان لتغذية الثورة المهديّة والإفادة  
منها فى تحرير مصر من الاحتلال ، فسافر محمد عبده سرّاً إلى تونس ومنها إلى  
مصر ، وأراد السفر إلى السودان ولكنّه فوجئ بوفاة المهديّ فى الحادى  
والعشرين من يونيو عام ١٨٨٥ ، وتسليم التعايشى ، فسافر سرا إلى بيروت  
وأقام فيها ، وبقي أستاذه جمال الدين فى باريس ، وأخذ كل منهما يجاهد فى  
سبيل منهجه الإصلاحى المرسوم .



وفي بيروت ألف محمد عبده جمعية التأليف والتقريب هو وصديقه تلميذ جمال الدين « ميرزا محمد باقر » للدعوة إلى الإسلام في جميع أنحاء العالم ؛ وتعريف الغرب بحقائق الإسلام والتعاون على إزالة اضطهاد أوربا للشرق أو المسلمين .

وكان قيام هذه الجمعية تطبيقاً رائعاً لأفكار جمال الدين ونزعاته وتعاليمه .

#### ( ٤ )

وفي أواخر عام ١٨٨٨ م عاد محمد عبده إلى وطنه بعد أن ظل في المنفى ست سنوات « وأخذ يكون مدرسة فكرية مستحرة لتثقيف الشعب وتربيته وتحريره من الجهل والخوف والجمود ، وإعداده لحياة ديمقراطية صالحة ، وكان من تلاميذه سعد زغلول والمنفلوطي ولطفي السيد والبلباوي ومصطفى عبد الرزاق والأحمدى الظواهري ومحمد مصطفى المراغي والزناكوني ورشيد رضا وسواهم .

وعاد جمال الدين إلى الآستانة يقيم فيها في ظلال السلطان عبد الحميد وأخذت دعوة جمال ومحمد عبده إلى التحرر الفكري والإصلاح الديني تنتشر في صفوف الشباب في مصر والعالمين العربي والإسلامي انتشاراً كبيراً .

وسعى محمد عبده في إصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية والقضاء والمساجد والافتاء ذائع معروف ، وساح محمد عبده في الأقطار الإسلامية فقام برحلات إلى تونس والجزائر والشام والآستانة وأوربا والسودان ، وهو أينما نزل ، وحيثما رحل ، ينشر رسالته ، ويدعو إلى الإصلاح والتجديد .

ومات جمال الدين في الآستانة في صباح الثلاثاء الخامس من شوال عام ١٣١٤ هـ — التاسع من مارس عام ١٨٩٧ م ودفن فيها ، وبعد سنوات ثمان مات محمد عبده في الثامن من جمادى الأولى عام ١٣٢٣ هـ — ٢١ يوليو عام ١٩٠٥ ، وذهب الإمامان إلى ربهما راضيين مرضيين بعد أن أديا رسالتهما

على خير الوجوه ، وجاهدا في سبيل الإسلام والمسلمين جهاد الأبطال وأسهما في خلق الوعي السياسي وتأجيج الشعور الوطني ، وإحياء العزة القومية في نفوس المسلمين عامة .

وكان نضال الإمامين وكفاحهما مضرب الأمثال ، لأنه كان نضالا صادقا خالصا لوجه الله والإسلام .

مات الإمامان ولكن تلاميذهما كانوا هم محور النهضة السياسية والوطنية في تاريخ العالمين العربي والإسلامي بعد وفاتهما ، وظلت مبادئ جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده حية في النفوس مشتعلة في القلوب ، مسجلة في أنصع صفحات التاريخ الحديث .

إن هذين الإمامين الجليلين والحكيمين الرائدتين ، والعبقريين المصلحين ، لهما سبب كل تقدم أحرزناه خلال الخمسين سنة الماضية ، ومن أفكارهما وآرائهما ودعوتهما انبعثت شعلة الثورة والتحرر والإصلاح في كل مكان ..

في سبيل تحرير الوطن العربي  
مصر تحرر فلسطين

إن مشروع تصفية إسرائيل ليس حلها من أحلام العرب ، ولا أمنية من أمانى القومية العربية المتحررة ، إنه حقيقة ، بل أكثر من حقيقة ، وهو إيمان كل عربي يؤمن بنفسه وبتاريخ بلاده ..

وإذا لم تتم تصفية إسرائيل هذا العام ، فسوف يحمل أمانتها الجليل العربي الجديد حتى يؤديها ، ولو بعد مائة عام .

إن مصر والشعوب العربية الحرة ، وفي مقدمتها سوريا ، وأصدقاءهم من الشعوب المحبة للسلام ، تؤمن إيماناً عميقاً بأن إسرائيل هي سبب اضطراب الأمن ، وزعزعة أركان السلام في منطقة الشرق الأوسط ، بل إنها ستكون سبب زعزعة السلام في العالم ، وسبب قيام حرب عالمية جديدة مدمرة في الغد القريب .

وإسرائيل قاعدة للاستعمار في الشرق الأوسط ، وقد أقيمت لحماية قاعدته الامامية : تركيا ، ولخلق الاضطراب في ربوع الشرق الأوسط حتى لا تنفرغ دولة للبناء والإصلاح والتعمير ، لتظل في حاجة إلى عون الاستعمار . وكذلك أعدت إسرائيل لتحمي مناطق البترول في إيران والعراق والكويت والسعودية ، ومع ذلك كله فلا بد من تصفية إسرائيل بفضل مصر وجيش مصر ، وبفضل التحرر العربي والقومية العربية ، وبفضل جهود الشعوب المحبة للسلام .

لابد من عودة فلسطين من جديد ، وعودة أبنائها اللاجئين إلى ديارهم وأموالهم وأراضيهم .

وأخالف رأى من يقول إن تصفية إسرائيل يجب أن يتم عن طريق هيئة الأمم المتحدة وكذلك عود اللاجئين إلى وطنهم ، فلسطين . .

إننى أؤمن بأن القومية العربية هي التي ستعمل على تصفية إسرائيل ، هي

التي ستكون بوعيمها وإيمانها وثباتها سبب الجوع الاقتصادي لإسرائيل ، وهي التي ستقف مع الشعوب المحبة للسلام في وجه إسرائيل ، وهي التي ستعزل إسرائيل عن حلفائها ، والجيش العربي الموحد هو الذي سيقف لإسرائيل يؤديها جزاء نياتها العدوانية الواضحة ، وهو الذي سوف يدخل « تل أبيب » ليحرر أرض فلسطين من الصهيونية ودعاتها ، ويعيدها إلى أبناءها العرب من اللاجئين والنازحين ، وهو الذي سوف يصدر مرسوماً بتحريم الصهيونية وبتيسير الهجرة لمن يرغب من الإسرائيليين في الهجرة ، ويؤمنه سوف لا يبقى في فلسطين إسرائيل يجب الإقامة في بلاد لم ينشأ فيها ، وليست وطنه وليست له مصلحة في البقاء فيها ، ولا يريد أن يعيش فيها من أجل أوامر الاستعمار ومطامعه وأغراضه .

إن جيش العروبة الموحد الذي ستكونه « الجمهورية العربية المتحدة » ، في القريب هو الذي سوف يدخل أرض فلسطين ليحررها من الاستعمار ، وليصفي دولة إسرائيل المزعومة ، وليصفي كذلك القواعد العسكرية الاستعمارية المقامة في وسط البلاد العربية على أرض عربية خالصة .

وليس هذا اليوم بعيد ، إنه جد قريب ، قريب حقاً ، بعد ما اتضحت نيات إسرائيل في العدوان ، فاعتدت على مصر في ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ ، وتحالفت مع الاستعمار ضد مصر وضد القومية العربية ، وتحالفت معه كذلك ضد سوريا ، وأيدت مشروع أيزنهاور ، وفتحت موانئها للأساطيل الاستعمارية ، وأعدت جيشاً ضخماً للاعتداء به على البلاد العربية الوداعة ، ثم تحالفت مع تركيا بنية التوسع على حساب مصر وسوريا وسواهما من الدول العربية الحرة .

إن تاريخ إسرائيل صفحة سوداء من الاعتداء ونية الاعتداء ، ومن حب الخوض في الاشلاء والدماء ، ومن الاطماع الحقةرة الدنيئة في الأراضي العربية ، وفي حق الشعوب العربية في الحرية والاستقلال والسلام .

إن يوم تصفية إسرائيل لجد قريب ، وسيكون الفضل الأكبر في ذلك راجعاً إلى مصر وجيش مصر بإذن الله .

والماضى البعيد يفسر لنا الحاضر والمستقبل جميعا، ففي ٢١ شعبان عام ٤٩٢ هـ - ١٤ يونيو ١٠٩٩ م استولى الصليبيون على بيت المقدس، وكان ذلك في عهد الخليفة المستظهر بالله العباسي، والخليفة المستعلي بالله الفاطمي، وقتل الصليبيون سبعين ألفا من أهل بيت المقدس، وسالت الدماء أنهارا، وحكم الصليبيون مدينة فلسطين الأولى، وظلوا يحكمونها، إلى أن جاء صلاح الدين الأيوبي، وبفضله انتصر جيش مصر على الصليبيين في موقعة حطين يوم السبت ٢٥ ربيع الثاني عام ٥٣٨ هـ ٥ يوليو ١١٨٧ م وفتح جيش مصر بيت المقدس وحررها من أيدي الصليبيين في يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ - ٢ سبتمبر ١١٨٧ م بعد أن حكمها الصليبيون واحدا وتسعين عاما، ثم صفى صلاح الدين قواعد الصليبيين في فلسطين ولم يبق لهم سوى عكا وشريط صغير على سواحل الشام.

واستمر الصليبيون يحكمون هذا الشريط الصغير نحو مائة عام أخرى، ونهض جيش مصر مرة أخرى لتحرير باقي مدن فلسطين والشام ففتح عكا في يوم الجمعة ١٥ جمادى الثانية عام ٦٩٠ هـ - ١٥ يونيو ١٢٩١ م، وسقطت باقي المدن الساحلية الأخرى في يد الجيش المصري، وذلك في عهد سلطان مصر صلاح الدين الأشرف خليل ٦٨٩ - ٦٩٣ هـ : ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م. وهكذا في خلال مائتي عام حررت فلسطين وأرض الشام من الاستعمار الصليبي المدمر، بفضل جيش مصر الباسل المجيد.

ولا أقول إن الحكم الإسرائيلي المخرب لأرض فلسطين سوف يستمر طويلا. لا، إنه حكم منهار سوف لا يصمد أعواما قلائل إن شاء الله. وسوف تحرر مصر، ويحرر جيش مصر أرض فلسطين كما حررها من قبل، بإذن الله.

صناعة الشعر عند المحدثين

( ١ )

كان الشعراء المحدثون يقصدون إلى ألوان خاصة من الأساليب الساحرة التي يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصنعة وسحر الأداء ، من استعارة وتشبيه وجناس وتطبيق ومقابلة وحسن وتعليل وسوى هذه الألوان ، التي يقصدونها قصدا ويفتنون فيها افتنانا ، ويحرصون على توشية شعرهم وقصائدهم بها وتجميل آثارهم بزخرفها ، وكان الراعي مقدمة لهذا اللون من الصنعة « فكان كثير البديع في شعره »<sup>(١)</sup>

وأول من فتن البديع من المحدثين بشار وابن هرمة<sup>(٢)</sup> ، ولم يكن في المولدين أصوب بديعا منهما<sup>(٣)</sup> ، ثم اتبع بشارا وابن هرمة مقتديا بهما العتابي والنفرى ومسلم وأبو نواس<sup>(٤)</sup> ، فالعتابي يذهب شعرة في البديع<sup>(٥)</sup> ، وكان يحتذى حذو بشار في البديع<sup>(٦)</sup> ، كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من المولدين كالنفرى ومسلم وأشبهاهما<sup>(٧)</sup> ، وأستاذه بشار أبو المحدثين وأستاذهم<sup>(٨)</sup> وكانت تتباين طبقات شعره فيصعد كبيرها ويهبط قليلها بكثيرها وكذلك كان حبيب<sup>(٩)</sup> ، كان أبو نواس ثانيا بشار في منزعه لفظا ومعنى وكثيرا ما صلب على قوالبه وجرى في مضماره . حتى قال الجاحظ فيهما : معناهما واحد والعدة اثنان ! بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولاً ولا تعب من عمل شعر ، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بلا اذن وليس بعد بشار مولد أشعر من أبي نواس<sup>(١٠)</sup> ، وكان

(١) ٣٤٢ : ٣ البيان (٢) ١١٠ : ١ العمدة (٣) ٥٥ : ١ البيان

(٤) ١١٠ : ١ العمدة (٥) ٢٤٢ : ٣ البيان (٦) ٥٥ : ١ البيان

(٧) ٥٤ : ١ البيان (٨) راجع ٢٠ : ٣ الأغاني ١١٠ : ١ العمدة ، ١٣ :

٢ زهر ٢٥٠٠ موشح . ص ٣ طبقات ابن المعتز . وكان الأصمعي يقول هو خاتمة

الشعراء (٢٣ : ٣ الأغاني) : (٩) ٢٦٣ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف

(١٠) ١٦١ العصر العباسي للأسكندر .



أبو نواس يشبهه بالنابغة<sup>(١)</sup>، وكان أسير المحدثين شعرا<sup>(٢)</sup>. والصنعة واضحة بشكل ملبوس في ميمته :

وذى رحم قلبت أظفار ضغنه بحلى عنه وهو ليس له حلم<sup>(٣)</sup>  
على أن هذه الصنعة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة وتهذبا أدبيا  
واسعا للشعر ومذهبا جديدا مأثورا إلا على يد المحدثين عامة<sup>(٤)</sup> وعلى يدى مسلم  
وأبى تمام على الخصوص، فسلم أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ  
نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن فى الأشعار المحدثنة قبله إلا النبد اليسيرة  
وهو زهير المولدين وكان يبطىء فى صنعته ويجيدها<sup>(٥)</sup>، بل هو فيما زعموا  
أول من قال هذا الشعر المعروف بالبديع وهو الذى لقب هذا الجنس بالبديع  
واللطيف<sup>(٦)</sup>، وأول من أفسد الشعر بالبديع<sup>(٧)</sup>، ويشهد به النقاد جميعا فى  
مذهب الصنعة والبديع منوهين بأثره فى هذا الباب<sup>(٨)</sup>، كان يتخذ الصنعة مذهباً  
يطبق عليه نماذجه بيتاً بيتاً فعنى بضروب التصنيع والزخرف المختلفة من جناس  
وطباق واستعارة ومشاكلة وأقام ألفاظه وتعايره كما يقيم المثلون تماثيلهم وحقا  
كان مسلم زعيم التصنيع فى عصره فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجه  
فالقصيد عند لا تعبر عن خواطر وإنما تعبر عن ألوان<sup>(٩)</sup>.

## ( ٢ )

وعمت موجة التصنيع بعد مسلم، وعلى نمطه وخطوه سار أبو تمام والبحتري،  
فكانا يطلبان الصنعة ويولعان بها، فأما حبيب فيذهب إلى حزنونة اللفظ  
وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً يأتى للأشياء من بعد

---

(١) ١١٠ : ١ : العمدة، (٢) ١٧٣ : ٣ : العمدة. (٣) وهى فى ديوانه. ونسب  
لمن بن أوس خطأ. (٤) ١٧٣ : ١ : العمدة. (٥) ١١٠ : ١ : العمدة. (٦) ٢٠ : ١ :  
معاهد التنصيص. (٧) ٨ الموازنة. (٨) ٦٨ المثل السائر. ١٠٩ طبقات ابن  
المعتمر، ٢٧٢ معجم الشعراء. ٢٤٨ رسائل البلغاء. ١٣٢ : ٤ زهر الآدب.  
(٩) ٨١ و ٨٣ الفن ومذاهبه.

ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة ، وأما البحترى فكان أملح الناس صنعة وأحسن مذهباً في الكلام يسلك منه دمائه وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة<sup>(١)</sup> ، كان لأبي تمام مذهب في المطابق هو كالسابق إليه جميع الشعراء<sup>(٢)</sup> ، وربما أسرف في المطابق وفي المجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها<sup>(٣)</sup> ، ولا تجتمع الاستعارة اجتماعها فيما نظمها<sup>(٤)</sup> ، وهو أول من شرع البديع وأنبع عيون التقسيم والتصريح والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس<sup>(٥)</sup> ، وعلى أى حال فأبو تمام ومسلم هما اللذان طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طرقا سابلة وأكثر منها في أشعارهما تسكيرا سهلا عند الناس على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفاً<sup>(٦)</sup> ، وكان أبو تمام يستخدم في صناعة شعره وشي التصنيع الذي عرف عند مسلم من طباق وجناس ومشاكلة وتصوير وأضاف إليها شيئا آخر من الثقافة والفلسفة وعقد فيها تعقيدا فكان يعتمد في تصويره على صبح التدبيح وقد استوعب الفلسفة والثقافة وحولها إلى فن وشعر فالطباق والجناس والمشاكلة كل ذلك وسواه تجتمع في شعره فيجمله الغموض في كثير من جوانبه وأجزائه وهو الغموض الفني الذي آخذ به النقاد فهو يبتكر أفكاراً وصوراً جديدة ولكنه يحس بأن اللغة لا تستطيع أن تؤدي ما يريد وجانب الغموض والمعاني العويصة في شعره هو الذي أثار ضجة واسعة حول شعره تشبه تلك الضجة التي شبت في فرنسا حول مذهب الرمزيين حين تبرز من مذهب البرناسيين ، وكان أبو تمام يستخدم الطباق استخداماً معقداً يلوّنه بأصباغ فلسفية وكان يسميه توافر الأضداد<sup>(٧)</sup> وهو المقابلة وكان البحترى يتشبهه بأبي تمام وينحو نحوه ويخوذ حذوه في البديع<sup>(٨)</sup>

(١) ١٠٩ : ١ : العمدة . (٢) ١٦٨ : ٧ مذهب الأغاني . (٣) ٩٦ إعجاز القرآن

(٤) ٩٢ رسالة الغفران . (٥) ٣٠٥ الرحا للشهاب من ظلامة أبي تمام التي ذكرها الشهاب الخفاجي في ريجانه ( ٣٠٤ - ٣٠٩ ) وقد صنفها الخالدي على لسان أبي تمام يشكو فيها الطائي من الواعظ الموصلي الذي كان يغير على شعر أبي تمام في كلامه وشعره . (٦) ١١٠ : ١ : العمدة . (٧) راجع ١١١ و ١١٥ و ١٢١ و ١٢٣ و ١٢٤ و ١٣١ الفن ومذاهبه في الشعر العربي . (٨) ١٨٣ : ٧ مذهب الأغاني .

وكان لا يرى في التجنيس ما يراه أبو تمام<sup>(١)</sup> ويقل التصنع له فإذا وقع في كلامه كان في الأكثر حسنا رشيقا وتصنعه للمطابقة كثير حسن وتعمقه في وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة في السلاسة<sup>(٢)</sup> والبحتري على أي حال لم يكن متفلسفا ولم يكن من رجال الفكر العميق كان بدويا أعرايا فظلت أدوات الصناعة عنده ساذجة بسيطة<sup>(٣)</sup>، كان يتبع الألفاظ وينقدها نقدا شديدا كما يقول الباقلاني، وكانت ألفاظه كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلى كما يقول صاحب المثل السائر، بل كانت كالعسل حلوة<sup>(٤)</sup>

أما ابن الرومي فقد كان من الشعراء الذين يؤثرون المعنى على اللفظ فيطلبون صحته ولا يبالون حيث وقع من هجنة اللفظ وخشونته<sup>(٥)</sup>، فكان يصنع شعره على طريقة المدرسة المحافظة ولم يستطع أن يخرج إلى المدرسة الحديثة مدرسة التصنيع<sup>(٦)</sup>، فهو حديث في ثقافته ولكنه لا يستطيع أن ينهض في فنه بألوان التصنيع وزخارفه، وحقا قد شغف بالتصوير ولكن هذا الشغف لا يخرج به إلى مجال المصنعين<sup>(٧)</sup>، وهو مع ذلك قد أتى بألوان الزخرف الفني في شعره ولكن دون أن يتخذها مذهباً، وكان يستخدم الطباق والجناس في شعره

---

(١) أي من إسراره فيه (٢) ٩٦ إعجاز القرآن (٣) ٩٠ الفن ومذاهبه (٤) ٣٥ طبقات ابن المعتز والآمدی يفضل ابتداءاته (٥٥ : ١ العمدة) وكان مقصرا في الخروج من النسيب إلى المدح (٤١ إعجاز القرآن)، ويفضله الجرجاني بجودة الابتداء على حبيب والمتنبى وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة (٣٠٥ : ١ العمدة)

(٥) ١٠٦ : ١ العمدة، وابن الرومي أكثر الشعراء اختراعا للمعاني (٢٣٢ ج٢ العمدة)، وأدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة (١٦١ رسالة الغفران). (٦) ٩٤ الفن ومذاهبه. (٧) ٩٥ المرجع.

وهو يشبه البحتري في ذلك إلا أن البحتري يكثر من الجناس ، وقد استعار من أبي تمام صيغ التدبيج<sup>(١)</sup>.

( ٣ )

وانتهى علم البديع والصنعة إلى ابن المعتز وختم به<sup>(٢)</sup> ؛ كان ابن المعتز هو الشاعر الذي انتهت إليه الصناعة الشعرية فقد كان يحب الفن للفن وينظم الشعر لياهو به وكان في العباسيين كالوليد في الأمويين وكان متكلفاً مجيداً في تكلفه كما كان الوليد مطبوعاً مجيداً في طبعه . ويقول عبد القاهر فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبي تمام ولم يكن من المطبوعين<sup>(٣)</sup> ، وكان عبد القاهر يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع ، ويصف ابن رشيق صنعة ابن المعتز فيقول : وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعاً من ابن المعتز فإن صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر وهو عندى ألطف أصحابه شعراً وأكثرهم بديعاً وافتناناً وأقربهم قوافي وأوزاناً ولا أرى وراءه غاية لطالها في هذا الباب<sup>(٤)</sup> ؛ ولقد صدق ابن رشيق في حكمه الأدبي على ابن المعتز وصنعته فإن له من روائع الصنعة وسحر البديع وجمال الأداء ولطف الأساليب ودقة المذهب وحلاوة الصياغة في صناعته ما يروع القارئ ويستبد بإعجاب المنصف من النقاد ، « كان أبو تمام متكلفاً للبديع وكان البحتري وابن المعتز يجريان مع الطبع وكان مسلم ينهج

---

(١) وكان يلتزم حركة ما قبل الروى في أكثر شعره (١٣٣ : ١ العمدة) وكان يلتزم ما لا يلتزم في القافية ١٣٧ و ١٣٨ : ١ العمدة وقد يلتزم الحرف وحركته قبل الروى ١٧٢ سر الفصاحة .

(٢) ١١٠ ج ١ العمدة .

(٣) ٢٦٢ أسرار البلاغة .

(٤) ١٠٩ و ١١٠ ج ١ العمدة .

— ١٧١ —

نهجا وسطا»<sup>(١)</sup> . . ولا شك أن ذلك أثر لعصره ابن المعتز وبيئته وحياته ووجدانه وشعوره ، وآية ناطقة بحبه للجمال السارى فى الحياة .

وقد استمر مذهب الصنعة بعد ابن المعتز منهجا فنيا لكثير من الشعراء حتى العصر الحديث .

وفى أوائل القرن العشرين بدأ مذهب أدبى جديد بتأثير آداب أوروبا ، خلاصته الدعوة إلى البساطة والسذاجة فى الأسلوب وأن يعبر الكاتب والشاعر عن فطرته دون تسميق أو تكلف .

---

(١) ١٧٠ وما بعدها الأسلوب للشايب .

الطبع والصناعة في الشعر العربي

( ١ )

المطبوع من الشعراء كما يقول ابن قتيبة من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر البيت عجزه وفي فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغزيرة<sup>(١)</sup>. والمصنوع هو المنقح المثقف من الشعر الذي قومه صاحبه بالثقاف ونقحه بطول التفتيش ولم يذهب فيه مذهب المطبوعين<sup>(٢)</sup> مما يظهر للنقاد مهما كان محكما<sup>(٣)</sup> وتجدد البيت فيه مقرونا بغير جاره ومضموما إلى غير لقفه<sup>(٤)</sup>، على أن أئمة الصنعة في الشعر العربي كانوا يجعلون قصائدهم نمطا واحدا مما يجعلها مستوية الشاعرية كالخطيئة وسواه ولذلك قال الأصمعي: الخطيئة عبد لشعره، قال الجاحظ: عاب شعره حين وجده كله متخيرآ لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه<sup>(٥)</sup>، وقال الأصمعي أيضا: زهير والخطيئة وأشباههما عبيد الشعر وكذلك كل من يجود في جميع شعره ويقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى تخرج أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة<sup>(٦)</sup>، قال ابن رشيق: يريد الأصمعي أنهما يتكلفان إصلاحه ويشغلان به جواسمها وخواطرها<sup>(٧)</sup>، وكان الأصمعي يقول: وإنما الشعر المحمود كشعر الجعدى ورؤبة ولذلك قالوا في شعره: مطرف بآلاف وخمار بواف<sup>(٨)</sup>، وكان

(١) ٢٤ الشعر والشعراء. (٢) ١٦ المرجع. (٣) ٢٢ المرجع.

(٤) ٣٣ المرجع ولذلك أخذ النقاد القدماء كالصاحب والتهالبي والبديعي على المتنبي كثرة التفاوت في شعره.

(٥) ١٥٠ ج ١ البيان والتبيين.

(٦) ٢٥ ج ٢ المرجع وتروى كلمة الأصمعي برواية أخرى هي: زهير والنابعة، وكان النقاد يعدون النابعة من المصنعين ويروى عن أبي عبيدة قال: سمعت أبا عمرو يقول: زهير والخطيئة عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين (١٠٥ إعجاز القرآن).

(٧) ١١٢: ١ العملة.

(٨) ٢٥: ٢ البيان.

الأصمعي يفضلهُ من أجل ذلك<sup>(١)</sup>، قال الجاحظ: وكان يخالف في ذلك جميع الرواة والشعراء<sup>(٢)</sup> وأرى أنه مسبوق بذلك الرأي، فقد روى أنه قيل للرماح: لو أصلحت شعرك لذكرت به، فقال: إنما الشعر كنبيل في جفيرك ترمى به الغرض فظالم وواقع وقاصد<sup>(٣)</sup>، ورد بشار على من عابه بالتفاوت في شعره بأن الشاعر المطبوع كالبحر يقذف مرة صدفة ويقذف طوراً خرزة<sup>(٤)</sup>. وعلى هذا الرأي يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت في شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه وهو الآلية الناطقة على شاعرية المتنبي عنده<sup>(٥)</sup>. وإذا كان الشاعر مصنعا بأن جيده من سائر شعره كأبي تمام وإذا كان الطبع غالباً عليه لم يبن جيده كل البيئونة وكان قريباً من قريب كالبحترى ومن شاكله<sup>(٦)</sup>.

ويرى بعض المحدثين أن الشعر إذا كان صادراً عن ذات نفس الشاعر كان هو شعر الطبع أو شعر الفطرة<sup>(٧)</sup> فأينما وجدت النفس المتأثرة بما يزحمها من بواعث الشعراء فقد وجدت هنالك شعر الفطرة<sup>(٨)</sup>، ويذهب إلى ذلك العقاد حيث يرى أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والتكلف فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع وإلا فهو متكلف<sup>(٩)</sup>، ويرى أن الأديب المطبوع من كان غير مقلد في معناه أو لفظه وأن يكون صاحب هبة في نفسه وعقله لا في لسانه فقط<sup>(١٠)</sup> وكذلك ذهب صاحب «تاريخ النقد الأدبي عند العرب» الذي ذكر رأى ابن قتيبة وحلله بأنه يريد من الطبع في الشعر معنى الارتجال لا الطبع والشعور والملكة الشعرية الموهوبة ثم بنى على ذلك نقده لابن قتيبة ورأيه<sup>(١١)</sup>.

- 
- (١) ١٥٠ ج ١ البيان . (٢) ٢٦ ج ٢ البيان : وكان الأصمعي مع كراهته للصنعة يستحسن التفاوت في الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلق الشعر من آثار الصناعة  
(٣) ٨٨ ج ٢ الأغاني (٤) ٢٧٥ ج ١ زهر (٥) ٢٧٦ مطالعات العقاد  
(٦) ١١١ ج ١ العمدة (٧) ص ٧ الطبع والصنعة في الشعر  
(٨) ١٦ المرجع (٩) ٢٧٧ مطالعات  
(١٠) ٢٢٦ مطالعات . (١١) ١٣١ تاريخ النقد الأدبي عند العرب



ورأى المحدثين اصطلاح جديد في الطبع والصنعة ومعناها ، وهو لا ينقض  
الرأى الأول الذى ذهب إليه القدماء ، بل لعل القدماء قد لاحظوه واكتفوا  
فى تعريفهم للطبع والصنعة بآثارهما الفنية فى الأدب والشعر .

ونحن نرى أن الأولى فى تحديد معنى الطبع والصنعة أن نجتمع بين الرأىين  
فالطبع هو الملمكة القادرة فى نفس الشاعر والأديب التى توحى إليه بفنّه وأدبه  
وحى الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف ودون تعب  
فى الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة ، فإذا جاء شئ من آثار  
هذا التكلف الفنى فى شعر المطبوعين من الشعراء فانما يحىء عفواً وعن غير  
قصد اليه وتعمد له وانما طلبه الذوق واستدعاه المعنى ونطقت به الشاعرية  
دون قصد ودون عناء ودون أن يطغى شئ على نفس الشاعر وشعوره  
وخلاجات قلبه ونزعات عقله وإحساسه . والصنعة هى : إحساس الشاعر  
أو الأديب بآثار الجمال الفنى وترف الأداء وزخرف الأسلوب ، وجهه لهذا  
الجمال والترف والزخرف ، وهيامه الفنى بها وقصده إليها وتعمره لها فى شعره  
وأدبه ، حتى ليطلب الفن للفن ، ويستلهم الجمال للجمال ، ويستوحى الشعر  
من ملكاته الفنية التى غلبت عليه هذه النزعة واستبد بها هذا الأسلوب ،  
وكادت تكون فناً خالصاً يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه  
وإحساسه بالحياة ، ويستبد بالظهور والغلبة عليها فى الفن ، أو يشاركها  
فى تراث الشاعر والأديب الفنى فيقلل من ظهور نزعاته ووجداناته فيه ،  
ولذلك عاب القدماء من النقاد الصنعة والتصنيع ، وكرهوا الصانعين والمصنعين ،  
ورأوا مذهبهم يحالف مذهب القدماء من الشعراء فى الجاهلية والإسلام .

## ( ٢ )

ولقد كان الشعر العربى أثراً للفطرة والقرينة ، واستجابة لمشاعر الشاعر  
وشعوره بالحياة فى الجاهلية ، وكان أكثره ارتجالاً أو ما يشبه الارتجال ،  
ينظمه الشاعر على البديهة ويأتى به عفواً خاطر ، ترد إلى ذهنه المعانى وتتابع

فتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ، وتأتية الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً وجمالاً ، كل ذلك في سهولة وتدقيق وفطرة ودون تثقيف وتهذيب وتنقيح ، وقد يتفق للشاعر منهم في شعره من آثار الصنعة التي لم يقصدها البيت والبيتان في القصيدة ، « وربما قرئت » من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل ،<sup>(١)</sup> وليس متكلفاً تكلف أشعار المولدين ، وإنما وقع لهم عن غير قصد ولا تعمل لتمكن بطباع القوم عفواً ، فلم تكن العرب تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظ أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه وإتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافي وتلاحم الكلام ببعضه ببعض<sup>(٢)</sup> ، فكل شيء للعرب فائماً هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني أرسالاً وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً<sup>(٣)</sup> .

وفي العصر الجاهلي بدأ لون جديد من ألوان التثقيف والصنعة في الشعر على يدى أوس وزهير وتلاميذهما من الشعراء .

ومن أبرز رجال هذه المدرسة زهير ، « وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التثقيف والتنقيح ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفاً من التعقب ، بعد أن يسكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك<sup>(٤)</sup> » ، « وكان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذبها في ستة أشهر ثم يظهرها فتسمى الحوليات<sup>(٥)</sup> » ، وعمل سبع قصائد في سبع سنين وكان يسميها الحوليات<sup>(٥)</sup> ، وقيل كان ينظمها في شهر ثم لا يزال يهذبها

(١) ١٦ البديع (٢) ١٠٨ ج ١ العمدة (٣) ١٥ ج ٣ البيان .

(٤) ١٣٤ صناعتين (٥) ٢٢٦ سر الفصاحة .

حتى يمر عليها الحول<sup>(١)</sup> ، قال الجاحظ : ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا<sup>(٢)</sup> ، وزمنا طويلا يردد فيها نظره ويقلب رأيه اتهاما لعقله وتتبعها على نفسه وكانو يسمون تلك القصائد الحوليات والمنقجات والمحكمات والمقلدات<sup>(٣)</sup> ، وقال : وكان زهير وهو أحد الثلاثة المتقدمين يسمى كبار قصائده الحوليات<sup>(٤)</sup> ، ولعل رأى النقاد في أنه كان يدع القصيدة عنده حولا يهذبها ويقوم ثقافها ويصبغها بصبغة من الصنعة والتقيح مبالغة في إطالة نظره فيها وصنعتة لها .

وقد سار تلامذة زهير على نهج أستاذهم فكان الخطيئة صانعا حاذقا يقوم على شعره وينقحه<sup>(٥)</sup> ، كان يعمل القصيدة في شهر وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يبرزها<sup>(٦)</sup> ، وكان يقول خير الشعر الحول المنقح<sup>(٧)</sup> أو المحكك<sup>(٨)</sup> ، ويشبهون طريقة الخطيئة في الشعر بطريقة زهير<sup>(٩)</sup> وكان الأصمعي يعيبه من أجل<sup>(١٠)</sup> صنعتة ، وكان الخطيئة راوية زهير<sup>(١١)</sup> ، وكان الفرزدق يروى للخطيئة كثيرا وكان أبو حية النمرى وهو من احسن الناس شعرا وألطفهم كلاما مؤتما بالفرزدق أخذنا عنه كثير التعصب له والرواية عنه<sup>(١٢)</sup> ، كما كان هذبة بن الحشرم راوية الخطيئة وجميل راوية هذبة وكثير راوية جميل<sup>(١٣)</sup> . وهكذا استمر هذا المذهب مذهب الثقيف وطول التهذيب منهجا فنيا يسير عليه بعض الشعراء حتى بعد العصر الجاهلي ، وكان أساسا لمذهب البديع الذي نشأ على يدي مسلم وأبي تمام وابن المعتز من المحدثين .

(١) ٣٨ ج ٣ الرافعي (٢) أي كاملا (٣) ٢١ ج ٢ البيان والتبيين .

(٤) ١٤٩ ج ١ و ٢٤ ج ٢ البيان و ١٠٥ إعجاز القرآن .

(٥) ٦٠ من التصحيف والتحرير للمسكري (٦) ١٣٥ صناعتين .

(٧) ١٤٩ ج ١ البيان (٨) ٢٥ ج ٢ ، ١٧٥ ج ١ العمدة ، ويروى ذلك

عن زهير (٢٦٦ سر الفصاحة) .

(٩) ٢٦٧ سر الفصاحة (١٠) ١٥٠ ج ١ و ٢٥ ج ٢ البيان .

(١١) ٧٨ ج ٧ الأغاني (١٢) ١٧٢ و ١٧٣ ج ١ العمدة ، ٢٩٩ الشعر والشعراء

(١٣) ٤٨ ج ٣ الرافعي ، ٣٠٠ الأدب الجاهلي ، ١٧٢ ج ١ العمدة ، وكان كثير

رواية جميل ومفضلا له (١٦ ج ٤ العقد) .

فنون الشعب العربي

( ١ )

فنون الشعر هي أغراضه وموضوعاته التي يقول فيها الشعراء من مدح وهجاء ونحر ورثاء وغزل وحكمة وماشاكل هذه الموضوعات التي عرفها الشعر والشعراء من قديم .

وأغراض الشعر طرقها الشعراء فنا ولكن لم يصطلحوا عليها اصطلاحاً ، وكانت « أقسام الشعر في الجاهلية كما يقول أبو هلال خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثي ، حتى زاد فيها النابغة سادساً هو الاعتذار فأحسن فيه ولا أعرف أحداً من المحدثين بلغ مبلغه فيه إلا البحرى <sup>(١)</sup> ، وليس للعرب شيء ينسب إلى انتهائى وما جاء عنهم من شكلها فهو من جملة المدح <sup>(٢)</sup> » . وقالوا : بنى الشعر على المدح والهجاء والنسب والرثاء ، وقالوا قواعد الشعر : الرغبة ومنها يكون المدح والشكر ، والرغبة ومنها يكون الاعتذار والاستعطاف ، والطرب ومعه يكون الشوق ورقة النسب ، والغضب ومعه يكون الهجاء والعتاب . وقال الرماني : أكثر أغراض الشعر خمسة : النسب والمدح والهجاء والفخر والوصف <sup>(٣)</sup> .

وقالوا : للشعراء فنون كثيرة تجمعها أربعة : المديح والهجاء والحكمة واللمو ، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون . فمن المديح المراثي والافتخار والشكر واللفظ في المسألة وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه ، ومن الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب وما أشبه ذلك وجانسه ، ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ وماشاكل ذلك ، ومن اللهو الغزل والطرده وصفة الخمر وما أشبه ذلك وقاربه <sup>(٤)</sup> ... وأول من عد فنون الشعر وميز بينها تميزاً هو أبو تمام فإنه رتب كتابه الحماسة في عشر أبواب :

الحماسة ، والمراثي ، والأدب . والتشبيب ، والهجاء ، والأضياف ، والمديح ، والصفات ، والسير ، والملح ومذمة النساء .

(١) ٩١ : ١ ديوان المعاني (٢) ٩٢ : ١ المرجع (٣) ١٠٠ : ١ العمدة

(٤) ٨١ نقد النثر .

أما البحترى فقد خالف أبا تمام في ذلك وجعل حماسته التي عارض بها  
حماسة أستاذه أبي تمام ١٧٤ بابا وأهداها للفتح بن خاقان . ونجد الحماسة  
البصرية (١) لأبي الحسن البصري اثني عشر بابا : الحماسة والمديح . الرثاء .  
الأدب . الغزل . الأضياف . الهجاء . مذمة النساء . الصفات . النعوت  
والسير . الأكاذيب والخرافات . الزهد .

ويجعل عبد العزيز بن أبي الأصبع أغراض الشعر ثمانية عشر (٢) .  
ورواة الشعر العربي في العصور الأولى كان لهم أثر كبير في تقسيم الشعر  
إلى فنون وأبواب :

فجامع ديوان أبي نواس (٣) يقسمه إلى فنون ثمان : المديح . المراثي .  
العتاب . الهجاء . الزهد . الطرد . الخمریات : الغزل والمجون .

وديوان أبو تمام (٤) مقسم إلى أبواب : المديح . المراثي . المعانيات .  
الأوصاف . الغزل . الفخر . الهجاء .

وديوان ابن المعتز رواة الصولى مقسم إلى عشرة أبواب : الغزل . المديح .  
الهجاء . الخمریات . المعانيات . الطرد . الأوصاف . الرثاء . الزهد . وكان كثير  
من دواوين الشعر ترتب بحسب الحروف الهجائية للقوافي لا بحسب الأغراض  
ومنها ديوان البحترى (٥) ، أما ديوان ابن الرومي فلم يطبع إلا مختارات منه

- 
- (١) ٥٢٠ أدب مخطوط بدار السكتب المصرية .  
(٢) ٧٦ : ٣ تاريخ آداب العرب للرافعى . (٣) اعتنى بجمع شعره جماعة  
منهم الصولى وعلى بن حمزة الأصفهاني وإبراهيم ابن أحمد الطبرى .  
(٤) جمعه الصولى ورتبه على الحروف وجمعه على بن حمزة الأصفهاني ورتبه  
على الأنواع (٢٨٣ : ١ كشف الظنون) .  
(٥) جمعه الصولى ورتبه على الحروف وجمعه على بن حمزة الأصفهاني ورتبه  
على الأنواع (٣٧٨ : ١ كشف الظنون) .

ولا نعلم على أى نهج صنع جامعة فى ترتيب شعره (١) ... على أن ليس من السهل تقسيم الشعر العربى إلى أبواب شاملة تستوعب جميع ما جادت به قرائح الشعراء فالأبواب التى يطررها الشعراء تختلف باختلاف العصور وباختلاف شخصيات الشعراء .

وبعض العلماء والنقاد يدخل بعض هذه الفنون فى بعض . فقدماء يرجع فى نقد الشعر الرثاء إلى المدح ويرى أن لافرق بينهما إلا فى اللفظ دون المعنى (٢) ، وإن كان هذا لم يحل بينه وبين أن يجعل أغراض الشعر ستة : المديح والهجاء والرثاء والتشبيه والوصف والنسيب .

وأغراض الشعر عند ابن رشيق كما عدها فى عمدته : النسيب والمديح والافتخار والرثاء والاستنجاز والعتاب والوعيد والإنذار والهجاء والاعتذار . ثم جاء البارودى فى العصر الحديث فصار قريبا من نهج أبى تمام فى تقسيم الشعر إلى فنونه المختلفة وهى عنده سبعة : الأدب والمديح والرثاء والصفات والنسيب والهجاء والزهد .

## ( ٢ )

هذا وأدباء الغرب يجعلون أبواب الشعر عامة ثلاثة : الشعر القصصى أو شعر الملاحم ، والشعر الغنائى أو الإنشادى والشعر التمثيلى أو المسرحى ؛ وهذه الأقسام الثلاثة قد ظهرت للمرة الأولى فى الأدب اليونانى ثم أخذ الرومان يقلدون اليونان فى فنونهم وسار الأدب اللاتينى فى الطريق التى سار فيها الأدب اليونانى ، وفى عهد النهضة أخذ الأوروبيون يدرسون الأصول اليونانية فتأثرت بها آدابهم تأثراً مباشراً ، وبنى الشعر الأوروبى الحديث على

---

(١) عمل شعره ورتبه على الحروف الصولى وجمعه أبو الطيب وراق ابن عبدوس من جميع النسخ فزاد فيه نحو ألف بيت وابن سينا انتخبه وشرح مشكلات شعره (٣٨٣ ج ١ كشف) .

(٢) ٦١ نقد الشعر .

الأصول اليونانية اللاتينية من حيث الأقسام الثلاثة المعروفة ، والعرب مع اطلاعهم على علوم اليونان وفلسفتهم لم يهتموا بالإنتاج الأدبي اليوناني فلم يصل فن التمثيل إلى البلاد العربية إلا في العصر الحديث عن طريق الغربيين ، كذلك لم ينشئ شعراء العربية قصصا منظومة على طريقة الألياذة ، والشعر العربي الذي بأيدينا اليوم كله من الشعر الغنائي .

( ٣ )

وبعد فإني أرى أن يقسم الشعر إلى أقسام يكون من أهمها :

- ١ — الشعر الوجداني وهو الذي يصف عواطف النفس ومشاعرها وآمالها وآلامها وأحزانها ومسراتها وحبها ولهوها .
- ٢ — الشعر الاجتماعي وهو الذي يتحدث عن المجتمع وحالته والبيئة والمؤثرات فيها والشخصيات وأثرها الاجتماعي في حياة المجموعة العامة .
- ٣ — الشعر السياسي ويتناول وصف الحياة السياسية وأحداثها والرجال الذين يبدعهم زمام الأمور في الدولة بمن تربطهم بالشاعر صلات خاصة أو عامة .
- ٤ — شعر الآداب والحكم والأخلاق .
- ٥ — الشعر الفني وهو الذي يصور الحياة ويصف مظاهر الطبيعة والاحياء ويرسم لك صوراً حية لكل ما في الوجود من كائنات .
- ٦ — الشعر الإنساني وهو الذي يتحدث عن آلام الإنسانية وآمالها وعن حقائق الحياة الخالدة ، وحكمها الرفيعة .



نشأة الشهر العربي

( ١ )

مر على كلام العرب ثلاثة أدوار انتقل فيها بمر الزمان من طور إلى طور : فأولها دور البساطة وهو الدور الذي كان الكلام فيه بسيطاً ساذجاً خالياً من كل تفنن في أسلوبه وتصنع في ألفاظه .

ثم ارتقى مع الزمان بالتدريج حتى وجدت فيه القافية فانتقل بها إلى دوره الثاني وهو دور السجع . والسجع هو الكلام المقفى أو موالاته الكلام على روى واحد .

وكان السجع فاشياً في كلام العرب الأولين من أهل الجاهلية وكانوا يلتزمون السجع في أكثر كلامهم لا سيما كلامهم في خطبهم ومنافراتهم ومفاخراتهم سواء في ذلك رجالهم ونسائهم حتى ولدانهم وجواريتهم الصغار . وكتب الأدب مشحونة بأسجاعهم فإذا رجعت إليها وتدبرتها علمت أن العرب مارسوا السجع وزاولوه في أزمنة طويلة حتى طبعوا عليه ، فأصبح لهم طبيعة تنتقل فيهم بالآرث الطبيعي من الآباء إلى الأبناء .

وبعد أن دخل الكلام في دور السجع واستمر فيه قروناً عديدة ارتقى منه إلى دوره الثالث وهو دور الوزن . وما لا يستتراب فيه أن الوزن في الكلام قد تولد من السجع .

ومن الجائز أن يكون الكلام قد أتى موزوناً من غير قصد كما نراه واقعاً في كلام الناس ومحاوراتهم كل يوم وقد وقع ذلك في القرآن أيضاً فتأتى قرينتان من الكلام المسجع متطابقتين في الحركات والسكنات وذلك هو الوزن . ساعد على الوصول إلى الوزن : الغناء والسجع ، فالمسافة بين الكلام والوزن قد قصرت بالسجع وازدادت قصراً باقتران السجع بالغناء فاقتران السجع بالغناء يزيد احتمال وقوع الوزن فيه بطريق الاتفاق والمصادفة ، كما ساعد على ذلك الرقص ، ثم إن احتمال وقوع الوزن في الكلام بطريق المصادفة يختلف قوة وضعفا باختلاف الأوزان الشعرية ببساطة وتركيبها فما كان

من الأوزان أبسط كان ذلك الاحتمال فيه أكثر وأقوى والعكس بالعكس ونعني ببساطة الوزن هنا سهولته على القريحة وخفته على الطبع وقرب مأخذه من الكلام المنشور بحيث يكون انطلاق الإنسان به سهلا وجرى الطبع عليه هينا .

وإذا نظرنا في أوزان الشعر وجدنا أبسطها الرجز إذ هو أسهلها على القريحة وأخفها على الطبع وأقربها إلى النثر وما الفرق بينه وبين الكلام المسجوع سوى وزن قريب المأخذ سهل التناول حتى يصح أن يقال كل شاعر تبدأ شاعريته بالرجز وما ذلك إلا لسهولته وقرب مأخذه .

ويؤيد كون الرجز أول ما ظهر من الشعر ما ذكره من أن الرجز أقدم الشعر .

وقد كان الشعر كله عندهم اسمان الرجز والقصيد فكل ما لم يكن رجزا سموه قصيدا من أي بحر كان ويدل على ذلك قول الأغلب الراجز العجلى لما استنشدته المخيرة بن شعبة وهو على الكوفة :

أرجزا تريد أم قصيدا لقد سألت هينا موجودا

فالشعر عندهم إما رجز وإما قصيد ولا ثالث لهما . والقصيد اسم جنس جمعي واحده قصيدة . وإذا كان الرجز أقدم من القصيد لزم أن يكون هو أول وزن تولد من الكلام المسجع وذلك ما قلناه .

والخلاصة أن السجع حلقة اتصال بين النثر والنظم وأن الوزن متولد من السجع وأن أول مولود من أوزان الشعر هو الرجز وأن الشعر نشأ عن المصادفة وساعد على ظهوره الغناء والرقص .

وقال الرصافي : الرجز مأخوذ من توقيع سير الجمال في الصحراء بحجة أنه أول ما عمله العرب لسوق الجمال في الحداة هكذا قال كثير ، ومن الغريب أن صاحب هذا الرأي قد ادعى أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطي الجمال مع أن في تقطيعه من سرعة الانحدار والتسرد وتدارك المقاطع ما ينافي

كل المنافاة وقع خطي الجمال لما في تلك الخطي من التؤدة والرزانة بسبب انفساح مواقعها وطول القوائم المرتمية من تحت تلك الجثة العالية الضخمة . ولو سلمنا أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطي الإبل لما سلمنا أنه يلزم من ذلك كون الرجز مأخوذاً من وقع تلك الخطي إذ لو لزم منه ذلك للزم أن يكون وزن الكامل ولا سيما مجزؤه مأخوذاً أيضاً من وقع خطي الجمال بطريق الأولى لأنه يوافق وقع تلك الخطي أكثر من الرجز ويطلقها تمام المطابقة حتى إنك لو امتطيت جملاً وجعلت وهو سائر بك سيراً وتبداً تنشد عليه شعراً من الكامل أو مجزؤه لرأيت عند تمام كل جزء من تفاعيله وقع يد من يدي جملك كما هو ظاهر للتأمل .

فألفاظ الشاعر كانت مبعجاً ثم صارت رجزاً ثم صارت شعراً ، والأقصر من الأشعار والأنقص هي المتقدمة في النشأة لأن الطباع أسهل وقوعاً عليها ومن ذلك النوع القصير : الأبيات السائرة والأمثال والحكم القصيرة .

ويقول الأستاذ لطفی جمعة<sup>(١)</sup> : إن العربي سمع أصوات النواخير<sup>(٢)</sup> وحفيف أوراق الأشجار وخرير الماء وبكاء الحمام ، فلذ له صوت تلك الطبيعة المترنمة ، ولذ له أن يبكي لبكائها وأن يكون ضداها الحاكى لنغماتها ، فإذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم أنه خيال قريحته ولا يدرك من أوزانه وضروبه إلا أنها صورة من حركات ناqqته .

وقال كليمان هيوار : إن الأسفار الطويلة على ظهور الإبل حببت إلى العربي نشيد الألمان يتلهم بها وتشقى ما يصيبه من أوصاب ، ثم أدرك العربي المنشد أو الحادى أنه كلما سارع في الانشاد رفعت الناقة رأسها وأوسعت خطاها كأن بين خطاها وأوزان الشعر ارتباطاً فظهرت تلك الضروب عفواً لأنها ثمرة طبيعية من ثمار العبقرية البدوية .

(١) الشهاب الراصد ص ٢٧٧

(٢) هذا غريب من القول فأين النواخير وخرير الماء في الصحراء والبادية

( ٢ )

ومن الناحية التاريخية. لنشأة الشعر الجاهلي نقول :

كتب مؤرخ يوناني هو « سوزومين » في القرن الخامس الميلادي يقول :  
إنه في الربع الأخير من القرن الرابع للمسيح تغلبت ملكة العرب مافيا على  
جيوش الرومان وهزمتها في فلسطين وفينيقيا فنظم شعراء العرب الأناشيد  
والأغاني وحفطوها ورددوها وتغنوا بها تخليدا للانتصار . وأثبت سانت  
تيلوس أحد حكام القسطنطينية وقد ترهب في آخر القرن الرابع الميلادي  
أنه سمع أناشيد العرب من صحراء سيناء<sup>(١)</sup>

فالشعر العربي المحكي قديم يرجع عهده إلى القرن الرابع للميلاد .  
ويقول ابن سلام<sup>(٢)</sup> :

« ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء إلا الأبيات يقولها الرجل  
في الحاجة تعرض له كقول دويد بن زيد حين حضره الموت وهو  
جاهلي قديم :

اليوم يبنى لدويد بيته لو كان للدهر بلى أبليته  
أو كان قرني واحدا أكفيته

وإنما قصدت القصائد على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف ، ،  
وكان أول بادئ هذه النهضة الشعرية وسائر في اتجاهها المهلهل بن ربيعة .  
ثم جاء امرؤ القيس ، فرفع اللواء ، فكان أول من وقف واستوقف وبكى  
واستبكى ووصف النساء بالظباء والمها والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى  
وفرق بين القصيد وما سواه من القصيدة وقرب مآخذ الكلام وقيد أوأبده  
وأجاد الاستعارة والتشبيه والكتابة ، ورقق الأسلوب وجعله عذبا جزلا

(١) ٢٧٨ الشهاب الراصد

(٢) ٢٩٤ ج ٢ المزهرة ، ١٧ طبقات الشعراء لابن سلام

وأول من يروى له قصيدة تبلغ ثلاثين بيتاً من الشعر مهلهل<sup>(١)</sup>، ويقال  
ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم، ثم ضمرة الكنانى، وكان بين هؤلاء وبين  
الإسلام أربع مائة سنة. وجاء امرؤ القيس بعد هؤلاء بمائتين وخمسين سنة تقريباً.

### ( ٣ )

وبعد فإن الباحثين يختلفون فى أول من أحدث هذه النهضة الفنية فى الشعر  
فهذبه وأطال فيه، وأسماء مهلهل وامرئ القيس والأفوه الأودى ولقيط  
ابن يعمر الأيادى وعمرو بن قميئة تتردد فى هذا المجال. ويقول السيوطى فى  
مزهرة نقلاً عن عمر بن شبة م ٢٦٢ هـ: «لشعر والشعراء أول لا يوقف  
عليه وقد اختلف فى ذلك العلماء وادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ولم  
يدعوا ذلك لقائل البيتین والثلاثة لأنهم لا يسمون ذلك شعراً، فادعت اليمانية  
لامرئ القيس، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص، وتغلب لمهلهل، وبكر لعمر  
ابن قميئة والمرقس الأكبر، وإياد لأبى دؤاد، وزعم بعضهم أن الأفوه  
الأودى أقدم من هؤلاء وأنه أول من قصد القصيد، وهؤلاء النفر متقاربون  
لعل أقدمهم لا يسبق المهجزة بمائة سنة أو نحوها<sup>(٢)</sup>.

وقد ضاع من الشعر الجاهلى الكثير « ولم يحفظ من الموزون عشرة<sup>(٣)</sup>،  
« ولا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب كما يقول ابن سلام<sup>(٤)</sup> » وكان  
عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل  
بيته فصار ذلك إلى بنى مروان.

ويقول أبو عمرو بن العلاء: ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله،  
ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير<sup>(٥)</sup>.

- 
- (١) يقول ابن سلام فى طبقات الشعراء: « وأول من قصد القصائد وذكر  
الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبى » ( ٢١ طبقات الشعراء، ٣٩٥ ج ٢ المزهرة للسيوطى )  
(٢) ٢٩٦ ج ٢ المزهرة طبع صبيح  
(٣) ٢٩٢ ج ٢ المرجع: (٤) ٢٩٣ ج ٢ المرجع وص ١٦ طبقات الشعراء  
لابن سلام طبع المطبعة المحمودية (٥) ١٦ طبقات الشعراء.

معنى الشعر عند النقاد

## ( ١ )

الشعر عرفه أرسطو بأنه كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية ،  
والمخيل الكلام الذى يتفعل له الإنسان انفعالا نفسانيا غير فكرى .

وعرفه قدامة وابن رشيق بأنه كلام موزون مقفى يدل على معنى ، وهو عند  
المعرى كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس ،  
ويقول ابن خلدون : الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارات  
والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى ، مستقل كل جزء  
منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجارى على أساليب العرب المخصوصة  
والشاعر من شعر يشعر وإنما سمي شاعرا لأنه يشعر من معانى القول وإصابة  
الوصف بما لا يشعر به غيره ، فكل من كان خارجا عن هذا الوصف فليس  
بشاعر وإن أتى بكلام موزون مقفى .

ويعرفه المحدثون بأنه الكلام المنظوم الذى يعتمد فيه صاحبه على الخيال  
ويقصد فيه إلى الجمال الفنى ، وبأنه الكلام الموزون المقفى الذى يصور  
العاطفة ، ويعرفه الرصافى بأنه مرآة من الشعور تنعكس بها صور الطبيعة  
بواسطة الألفاظ انعكاسا يؤثر فى النفوس .

ويقول أرنولد : هو كمال اللغة البشرية ، فيه يقرب الإنسان من الحق  
ويجسر على أن ينطق به ؛ ويقول كارليل : هو الموسيقى الأزلية التى يسمعها  
الشاعر من وراء الوجود . ويقول غيره : هو المحاولة الخالدة للتعبير عن  
الأمور .

## ( ٢ )

وبعد فالشعر إلهام يفيض على القلب من عالم الروح ، ويلبس ثوبا من  
الخيال الساحر . وينطق بلغة العاطفة الشاعرة ، ويحدث آثارا بعيدة فى المشاعر  
والوجدان ، ويكشف معانى الحياة فى كل شيء تفكر فيه أو تحس به فى هذا  
الوجود ، والشاعر ملك يغنى على قيثاره الفن الخالدة ليعت معانى الطفولة



الطاهرة والصوفية المتبتلة في الحياة ، وليشرق بفنه مع الفجر روحية وطهرا ،  
ومع الصبح نورا وسحرا ، ومع الضحى قوة وحرارة ، ومع الأصيل هدوءاً  
وجملاً ، ومع الليل رهبة وروعة ، وهو من الأزل يغرد وسيعيش يغرد  
في سرحة الفن ويملأ الوجود شدوا وغناء ، في سبيل أداء الرسالة التي حملها  
والتي نيط بها بعث الجمال وإيقاظ الشعور وتجديد الأخلاق والسمو  
بالعواطف وإحياء معاني السعادة الروحية في نفس الإنسان .

## ( ٣ )

والشعر عند بعض الأدباء الكلام البليغ المؤثر ، الذي يصور الشعور  
والإحساس والعاطفة ، وينطق عن حسن تخيل ودقة معان وجمال إلهام ، فهو  
على هذا لا يجب أن يكون موزوناً ، فالنثر قد يكون شعراً إذا اشتمل على  
لطف التخيل وروعة الشعور ، ولقد قال حسان لابنه عند ما وصف له زنبورا  
لسعه فأحسن الوصف وسما به إلى درجة جميلة من جمال الخيال والتخيل ،  
قال : قلت لبشار بن برد إني رأيت رجال الرأي يتعجبون من أبياتك في  
المشورة فقال : أنا علمت أن المشاور بين إحدى الحسينيين بين صواب يفوز  
بشمرته ، أو خطأ يشارك في مكروهه ، فقلت له : والله أنت في كلامك هذا  
أشعر منك في أبياتك ، فقد جعل الأصمعي وناهيك به من إمام في الأدب نثر  
بشار شعراً ، إذ قال له « أنت في هذا الكلام أشعر » .

ولم يسم المنظوم شعراً لكونه ذا وزن وقافية ، بل لكونه في الغالب  
يتضمن المعاني الشعرية ، أولأن العرب في الغالب لا تنظم الكلام إلا شعراً ،  
ويؤيد ذلك أن العرب عدو القرآن شعراً لسحره وروعة تصويره وبليغ أثره  
وجمهور الأدباء على اشتراط الوزن في الشعر . ويقتصر بعضهم على  
الوزن مع الخيال والعاطفة والشعور والإحساس والإلهام الفني الخاص ،  
وهؤلاء لا يشترطون في الشعر أن يكون مقفى بل هم يزدرون القافية  
ويدعون إلى اطراحها لأنها وإن تعددت في القصيدة الواحدة — يجعل كل

قسم من أقسامها على قافية — هي قيد للشاعر وعبء ثقیل إذ لا تدع الشاعر حراً في إظهار ما يريد من معنى أو شعور ، وهي السبب الأكبر لتأخر الشعر العربي عن الشعر في الآداب الغربية ، ويرون أنها « عضو أثرى قد بقي من كلمات كان يكررها في آخر كل بيت النادب في المناحاة والمتحمس في الحرب والصدام يوم تولد الشعر في عصور الجاهلية الأولى ، ولا بد من زواله بالتام لعدم فائدته اليوم ولتقيده الشعر فلا يتقدم حراً كبقية الفنون ، فإذا حرر الشعر من قيد القافية انصرف الشعراء إلى المعاني التي يريدونها لا إلى الألفاظ وإلى إظهار الشعور الحقيقي الذي تجيش به نفوسهم لا إلى الشعور الكاذب الذي تضطرهم إلى تصنعه ضرورة القافية وضرورة كونها على صورة خاصة من صور الإعراب في آخر كل بيت (١) » .

ويقولون : إنه إذا اتسعت القوافي لشقى المعاني والمقاصد ، وانفرج مجال القول بزغت المواهب الشعرية على اختلافها ، ورأينا بيننا شعراء الرواية وشعراء الوصف وشعراء التمثيل ، وما كانت العرب تنكر القافية المرسلة فقد كان شعراؤهم يتساهلون في التزام القافية كما في قول الشاعر (٢) :

ألا هل ترى ان لم تكن أم مالك بملك يدي أن الكفاء قليل  
رأى من رفيقه جفاء وغلظة إذا قام يبتاغ القلوص ذميم  
فقال أقلا واركأ الرجل إننى بمهلكة والعاقبات تدور  
فبيناه يشرى رحله قال قائل لمن جمل رخو الملاط نجيب  
فعندهم القافية ليست من الشعر لأن الشعر بالوزن وحده فهو الموسيقى

(١) من مقال للشاعر جميل صدق الزهاوى نشره في السياسة الأسبوعية عدد

٣ - ٩ - ١٩٢٧ .

(٢) هذا خطأ وما ذكره من ذلك ليس إلا بقايا من آثار التطور الفني في الشعر العربي في عصور نشأته الأولى . كما أن اختلاط الوزن في قصيدة عبید بن الأبرص كان أثراً من آثار التطور الفني في الشعر العربي في نشأته الغابرة .

التي تميزه من النثر . وما الحرص على بقاء القافية المشتركة في القصيدة إلا نتيجة الألف والعادة ، فإذا ألفت الأسماع الشعر المرسل استهجن القوافي كما تستهجن الأذواق اليوم السجع في النثر .

ويرى هؤلاء أنه ليس في الأوزان القديمة كبير ضرر وهي في الأغلب أرقى من الأوزان الغربية لأن أكثر البحور مركب من تفاعيل مختلفة بخلاف ماتألف من مقاطع متشابهة ، والتركيب دليل الرقي : نعم قد لا يوافق أكثر هذه الأوزان ضروب الغناء العصري .

وهؤلاء لا يتقيدون بأوزان الخليل الماثورة فعندهم الأوزان العربية ليست ستة عشر وزنا كما هو الشائع بل هي مع تفرعاتها قد تزيد على الخمسين ومن اليسر إكثار هذا العدد .

والجمهور على جعل القافية شرطا أساسيا في الشعر ، ولا مانع عند بعضهم من تسهيل صعوبات القافية بتعدد القوافي في القصيدة الواحدة حسب أغراضها أو على نهج الخمسات والمربعات والموشحات والأراجيز وما شاكل ذلك .

ولكن هل الشعر لفظ ووزن وقافية فحسب ، يرى الكثير من النقاد أنه لا يكفي فيه ذلك وأنه لابد أن يشتمل على معنى لطيف أو حكمة بارعة أو تشبيه جميل أو خيال بارع ، فالمعنى والخيال والعاطفة والتجربة الشعرية من أهم عناصره .

وهذا حق وصدق ، فالشعر لابد أن يحتوى مع الوزن والقافية على إلهام فني رائع وشعور بالجمال مرهف وإحساس بالكون والطبيعة والبيئة دقيق .

## فهرس السكتاب

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	تصدير	٨١	أبو تمام وعبقريته في اختياراته
٥	التكوين السياسي للدولة الإسلامية الأولى	٩١	في كتاب الحماسة
١٧	من مواكب التاريخ	١٠٤	أبو علي القمالي البغدادي
٢٢	بطل اليرموك	١١٥	ترجمة الثقافات في القرن الثاني والثالث الهجري
٢٦	نهاية امبراطورية	١٢٨	الامتزاج الثقافي بين العرب والعناصر الأجنبية
٢٩	مصير الامبراطور	١٤٠	ابن المقفع وأثره في الفكر العربي مؤرخ الحضارة الإسلامية
٣٣	خلفاء بني أمية في صفحات التاريخ	١٥٥	بين جمال الدين ومحمد عبده
٤٠	الفصل الأخير	١٦١	في سبيل تحرير الوطن العربي
٤٨	من التاريخ الثقافي والأدبي للإسلام في عصر بني أمية	١٦٥	صناعة الشعر عند المحدثين
٦٠	البصرة وسوق المربد	١٧٢	الطبع والصناعة في الشعر العربي
٧٠	العلاقات السياسية والثقافية بين الخلافة الإسلامية والامبراطورية البيزنطية في القرن التاسع الميلادي	١٧٨	فنون الشعر العربي
		١٨٣	نشأة الشعر العربي
		١٨٩	معنى الشعر عند النقاد

## للمؤلف

- ١ - قصة الأدب في مصر ( ٥ أجزاء )
- ٢ - قصة الأدب في الأندلس ( ٥ أجزاء )
- ٣ - قصة الأدب المعاصر ( ٤ أجزاء )
- ٤ - صور من الأدب الحديث ( ٤ أجزاء )
- ٥ - دراسات في الأدب والنقد
- ٦ - مع الشعراء المعاصرين
- ٧ - الأزهر في ألف عام ( ٣ أجزاء )
- ٨ - في ظلال الإسلام (بالاشتراك)
- ٩ - مراكب الحرية في مصر الإسلامية
- ١٠ - التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر
- ١١ - الشعر والتجديد
- ١٢ - رائد الشعر الحديث ( جزءان )
- ١٣ - من تاريخنا المعاصر





دار العهد الجديد للطباعة  
كامل مصباح - ت : ٥٠٨٥٢